

المكتبة الثقافية

١٣٢

النيل
في عصر المماليك
الدكتور محمود زق سالم

ثقافة ودراسة
الدار المصرية
للتأليف والترجمة

دار الفاروق



96

اهداءات ٢٠٠٠

المهندس / راحميس اللقاني

الإسكندرية

المكتبة الثقافية

١٣٢

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

النيل

في عصر المماليك
الدكتور محمود زق سالم

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية

كتب، عربي
(إهداء)

ثقافة وأدب القوي
الدار المصرية
للتأليف والترجمة

٦٦٠١٤

رقم التسجيل

دار الفلم

توزيع



دار الفلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالناصرة

ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

طنطا ميدان الساعة

ت : ٢٥٩٤

اول مايو ١٩٦٥

بسم الرحمن الرحيم

مقدمة

﴿ يروى ﴾ أنه في قديم الزمان ، حدث تشقق في الهضبة الإفريقية الواسعة ، بفعل زلازل شديدة ، صدعت أرضها ، وشقت سطحها ، وأقامت في بعض أجزائه أخاديد . ومن بينها كان أخدود ضيق ، هياً للماء المنحدر من أعاليه في الجهات الاستوائية والحبشية أن يتدفق فيملاً شعابه ويكون لنفسه مجرى ، ويسيل منحدرًا نحو الشمال ، ماراً بصعيد مصر ، ثم بوجهها البحري ، مكوناً في أرضه دلتاه ، صاباً في البحر المتوسط جهة رشيد . ثم تفرع منه إلى الشرق فرع آخر ، اتجه شمالاً نحو البحر المتوسط أيضاً صاباً فيه بمجوار دمياط . — ومن طمى هذا النهر كسا جانبيه ودلتاه طبقة خصبة . وكان لها منه على مدى الأيام غذاؤها وكساؤها — . ويفيض ماؤه كل عام في موسم معين من السنة ، هو موسم الفيضان . هذا الماء أو النهر ، هو النيل المبارك السعيد ، الذي أجراء

الله لمصر حياة لها ، ومداً لوجودها ، ورزقاً ميسراً لسكانها ،
وأمناً وجالاً لقطانها .

ويجري النيل في مصر ، آتياً من السودان ، مرفوداً من
الجبشة بروافدها . فيمر على أسوان في شق من الأرض ضيق ،
حواله من كل جانب من جانبيه جبل ، هو جزء من الهضبة .
ويستمر معه الجبلان إلى الشمال ، وهو يسير نحو دلتاه ، كأنهما
حارسان . ويفصل كل جبل عن شاطئ النهر ، فاصل ضيق من
أرض زراعية ، أخصبها نهر النيل وسقاها .

وارتبطت حياة مصر بالنيل ارتباطاً وثيقاً - كما ترى - فإنها
هبتة ومنحته ، كما قيل قديماً . ولذلك وهبت له كل حبها
وتقديسها . وبرز هذا الحب والتقديس ، منذ فجر التاريخ
حتى اليوم بصور شتى .

لقد بلغ عند قدماء المصريين حد العبادة والتأليه وتقديم
القرابين . وأضفى الخيال عليه ما شاءت له العاطفة . فشدوا به
قصصاً وأساطير ، وأغاني وتسايع .

ولم تقصر مصر الإسلامية في هذا المضمار ، ولم تحدد عن هذا
الحب والتقديس قيد أنملة . غير أنها لونت بالوانها الإسلامية ،
واتبعت فيه منهجاً لا يتجافى مع عقيدتها الدينية . وكان لذلك كله

صداه المديد ورجعه البعيد ، فى أديها ونثرها وشعرها .
شغل النيل إذآ ، مشاعر مصر وتفكيرها ، على مدى
الأزمان ، وفى كل فترة من فترات تاريخها . ومن بين هذه
الفترات ، عصر سلاطين المماليك . وهو العصر الذى حكمها فيه
عدد من سلاطين الأتراك والجراكسة ، بين سنتى ٦٤٨ هـ ،
٩٢٣ هـ . حتى أنهاء الاحتلال العثمانى البغيض .

ومن سلاطين المماليك : المعز آيبك ، والظاهر بيبرس ،
والمنصور قلاوون ، وابنه الناصر محمد . وكانوا أتراكا . ومنهم :
الأشرف قايتباى ، والأشرف قانصوه الغورى ، والأشرف
طومان باى . وكانوا جراكسة .

والأشرف الغورى هو الذى استشهد فى موقعة «مرج دابق»
عام ٩٢٢ هـ أثناء دفاعه عن البلاد ضد العثمانيين . والأشرف
طومان باى هو الذى شنقه العثمانيون على باب زويلة ، غيب
الاحتلال .

وهؤلاء السلاطين وأمرأؤهم وجنودهم المماليك ، طبقة
عسكرية غريبة عن البلاد ، حكمتها بقوة فروسيتهما وسلاحها .
وعاشت فيها عيشة إقطاعية صارخة مستبدة ، عانى الشعب من
وراءها ظمأ شديداً وحرماناً مشقياً .

ولكن مصر ، على الرغم من ذلك ، استطاعت بهم أن تقوم بدور بطولى حاسم ، سجله لها التاريخ ، وهو دحر قوى التتار والصليبيين ، فأبادت جموعهم ودكت معاقلمهم وأعادت الأسلاب من أيديهم ، وكذت أطماعهم عن الوطن العربى الكبير . هذا فضلا عن نهضتها فى مجال العلم والأدب .

ويصمها بعض الباحثين بأنها فى هذه الحقبة المكافئة ، إنما كانت تمر بدور ضعف وتأخر وانحطاط ، فيه تبدلت عاطفتها ، وجدت مشاعرها ، وخبث جذوة أدبها . وأنها غفلت — فيما غفلت عنه — عن نيلها المبارك العظيم ، فلم تحس إزاءه بمثل ما كانت تحس به من قبل ، ففكرت بذلك فضله ، ووجدت يده . وعقت أبوته . وأنها إذا ذكرت يومًا فى أدبها ، طغت عليها صناعة البديع ، وشغلها أدب الألفاظ ، فسد ذلك مسالك عواطفها وعاق مشاعرها .

ونحاول هنا ، أن ننفى التهمة ، ونزيف الفرية ، بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع . ونؤكد أن شعب مصر ، كان فى عصر المماليك ، هو هو ، الشعب الوفى الذى لا يحدد الفضل ، ولا ينكر الصنيع ، وأنه لم يحد قط عن حب النيل وتقديسه ، والتغنى بأياديه ، بعاطفة مشبوبة ، وبأدب سمح لم تتخلف بشاشته . واعتمادنا فى التدليل ، ما خلفه أبناء مصر من النصوص فى مجال العلم والأدب ، فى العصر المذكور .

من مؤلفاتهم

التي تحدثت عن النيل

في مصر في عصر المهاليك حركة علمية كريمة ، شمر قَامَتْ فيها علماء مصر عن ساعد الجد ، وأعملوا الفكر ، وبذلوا الجهد ، ليعثوا علوم الإسلام والعربية وآدابها ، ما استطاعوا ، ليحافظوا على سلسلتها موصولة الحلقات إلى الأجيال القادمة من بعدهم .

وكانت بلاد الإسلام في المشرق والمغرب ، قد أصيبت بضربات قاصمة ، كانت ذات آثار سيئة على تراث المسلمين العلمي والأدبي . إذ ابتلى العراق بالاحتلال التتري الذي أزال الخلافة العباسية جملة . وابتليت الأندلس بالفرنجة ينقصون أطرافها ويقصون جوانحها .

فكان لذلك رد فعل كبير في مصر ، التي كانت تعيش نسيباً ، في قوة ومنعة وعزة واستقلال ورخاء . فاندفعت واندفع علماءها جاهدين ، لبعث علوم الإسلام والعربية وآدابها . وتتابعت مؤلفاتهم في نواحي العلم والأدب حتى خلفوا من ذلك ذخيرة قيمة ، هي مفخرة باقية لمصر وأبنائها .

ومن بين مؤلفاتهم كتب فى التاريخ بأنواعه ، وفى الحطط ،
وفى تقويم البلدان . وقد تناولت هذه الكتب ، فيما تناولته
بالحديث ، نهر مصر العظيم وهو النيل المبارك . فكان مدارا
لبحثهم وميدانا لتحقيقهم حسبما سمحت لهم به ظروف العلم
والتحقيق فى زمانهم . وكان إلى ذلك محلا لتفكيرهم ومراحا
لخيالهم ومسرحا لحدسهم . واعتمدوا فيما تحدثوا به على أقوال
من سبقهم من العلماء — العرب وغيرهم — وفيما سطروا ونقلوا
كثير من الخيال والأسطورية .

وبدهى أنهم لم يبلغوا مقدار ما بلغه العلماء فى العصور الحديثة ،
فى الدقة والتحصيل والوصول إلى الصواب الحاسم . إذ لم يتح
لهم ما أتىح لهؤلاء من ميسرات الكشف والرؤية والاختبار
والتحصيل .

ونعرض عليك فيما يلى ، بعض هذه المؤلفات . مع الإشارة
إلى شىء مما تحدثوا به فيها عن النيل وما يتصل به . وذلك
على سبيل التمثيل فقط ، لا الاستقصاء . وهى مرتبة بحسب
وفيات المؤلفين . فمن ذلك :

١ — نهاية الأرب : للنويرى المتوفى عام ٧٣٢ هـ . وهو
فى أكثر من ثلاثين مجلداً ، طبع بعضه ، ولا يزال بعضه

مخطوطاً . وهو فى التقويم ووصف الأرض والممالك ، وفى التاريخ والأدب .

وفى الجزء الأول منه عقد فصلاً طويلاً عن النيل ، نقل فيه أقوال قدامة بن جعفر وغيره ، وزاد عليها بعض معارفه فى عصره .

وقد أشار إلى انبعاث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء من عين تجرى منها عشرة أنهار ويتصل ببطائح - بحيرات - ثم تخرج منها - على نحو ما سنشير إليه - . وتتبع مجرى النيل من لدن بحيرة «كُورسى» إلى السودان فالنوبة فأسوان وصعيد مصر حتى يصب فى بحر الروم - البحر المتوسط - . وروى جملة من الأقوال والآحادىث فى فضائل النيل ومزاياه ومزايا مائه . وأشار إلى سبب فيضانه . وبسط حديثه بعض البسط عن مقدار الزيادة فى ماء النيل ودخولها إلى خلجانه ، واحتفال الناس بالوفاء إذا بلغ ارتفاع الماء ستة عشر ذراعاً . ونوه بالطريقة المتبعة فى زمانه فى رى الأرض من ماء الفيضان بواسطة الترعة والجسور .

ومما قاله عن فرح أهل مصر واحتفالهم بوفاء النيل :
« ويحصل لأهل مصر إذا وفى النيل ستة عشر ذراعاً - وهى

قانون الرى - فرح عظيم ، بحيث أن السلطان يركب فى خواص دولته وأكابر الأمراء فى « الحراريق » إلى المقياس ، ويمد فيه سباطا يأكل منه الخواص والعوام . ويخلع على القياس ويصله بصلة مقررة له فى كل سنة .

ومن لطيف ما ذكره عن تعليل يوم الوفاء قوله : « وذكر أن بعض المفسرين يقولون : إن يوم وفاء النيل هو اليوم الذى وعد فيه فرعون موسى بالاجتماع . وهو قوله تعالى إخبارا عن فرعون : « قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضخمى » . ثم قال : « والعادة جارية أن اجتماع الناس للتخليق فى هذا الوقت » .

والتخليق طلاء عمود المقياس بالخلق ، وهو نوع من الطيب .

٢ - تقويم البلدان : لأبى الفداء اسماعيل المتوفى عام ٥٧٣٢ هـ . وهو فى جغرافية بلدان كثيرة منها مصر .

وقد تكلم فيه عن النيل فى أكثر من موضع . وهو فى حديثه ونقله يبدو أكثر دقة وتعقلا . وقد ذكر منبع النيل ومجراه واتصاله بالبحيرات الاستوائية ، ومصبه فى بحر الروم ، وكثيراً من فضائله . واستهل حديثه عنه بقوله : « ذكر نيل

مصر ، وهو النهر العظيم المشهور الذى ليس له نظير فى الوجود .
٣ — صبح الأعشى : للقلقشندي المتوفى عام ٨٢١ هـ . يتحدث
فيه عن صناعة الإنشاء . وتطرق إلى ذكر ممالك الإسلام
وجغرافيتها . وعقد فصلا فى الجزء الثالث بعنوان : « ذكر النيل
ومبده وانهائه وزيادته ونقصه وما تنتهى إليه يادته ، وما تصل
إليه فى النقص قاعدته » . وقد نقل كثير آراء بطليموس
اليونانى . وهو معتمد كثير من علماء التقويم . وكذلك نقل عن
أبى الفداء وغيره .

وتحدث كذلك عن فضائل النيل ، وعن ارتفاعاته المختلفة
إلى يوم وفائه ، مؤرخا لها بأيام الشهور القبطية . وذكر أيام
البشارة بالزيادة ، والمناداة عليها والإعلان بها . وشرح طريقة
قياسها مع معلومات عن المقياس .

وأشار إلى عادات متصلة بالنيل قديما ، وعقد فصلا عن
خلجان مصر وزروعها ورياحينها وفواكهها إلى غير ذلك .

٤ — الخطط المقرزية : للمقرزى المتوفى عام ٨٤٥ هـ .
ولعلها أوسع كتب العصر تحدثنا عن جغرافية النيل ومصر ، فيما
تناولته من الخطط المصرية فى القاهرة والإسكندرية .

وفى الجزء الأول منها ، جملة فصول عن النيل وما يتصل به .

ومن ذلك فصل في « ذكر شيء من فضائل النيل » وفصل في « ذكر مخرج النيل وانبعاثه » وفصل في « الرد على من اعتقد أن النيل من سيل يفيض » . وفصل في « ذكر مقاييس النيل وزيادته » . وفصل في « ذكر ما قيل في ماء النيل من مدح وذم » . وفصل في « ذكر عجائب النيل » . وفصل في « ذكر ما كان يعمل في أرض مصر من حفر الترع وعمارة الجسور » ونحو ذلك من أجل ضبط ماء النهر وتصريفه في أوقاته . وفصل في « ذكر أصناف الأراضي الزراعية في مصر وأقسام زراعتها » . وهذه الأصناف تتميز بحسب سقيها ومواعيده . ولكل منها دور زراعي ونوع من النبات ودرجة من الإنجاب . وفي هذا الفصل تحدث عن أهمية جسور النيل وخلقانه لأراضي مصر الزراعية . وعن أنواع الحبوب والمزروعات وطريقة زراعتها ومواعيدها ومكانها واحتياجاتها وموعد نضجها ومقدار غلتها ، وربط ذلك بماء النيل وفيضانه ونقصانه . إلى غير ذلك .

وفي الجزء الثاني منها جملة فصول أخرى . منها : فصل في « ذكر ما يوافق أيام الشهور القبطية من الأعمال في الزراعات وزيادة النيل وغير ذلك ، على ما نقله أهل مصر عن قدامئهم واعتمدوا عليه في أمورهم » . وفصل في « ساحل النيل بمصر

وما طرأ عليه من التغيرات والتحويلات ، وما تجدد حوله من
الأراضي التي انحسر عنها الماء ، وما اختفى مما طغى عليه وجرفه » .
وذلك من لدن الفتح العربي إلى زمان المؤلف . وفصل في « ذكر
المنشأة » التي أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني وزير
صلاح الدين الأيوبي ، وكانت خارج القاهرة . وفيه تحدث عن
النيل وبعض أراضيهِ وخليجانه . وفصل في « ذكر طرف مما قيل
في القاهرة ومنتزهاتها » على جانبي النيل . ومنها أرض الطبالة
وأرض القرط والسكتان ، وبركة الفيل .

وفي الجزء الثالث عقد فصولاً كثيرة العدد ، تحدث فيها عن
خليجان مصر المستمدة من النيل ، كالخليج الكبير والخليج
الناصري . وعن القناطر المقامة عليها كقناطر الخليج وقنطرة
السد . وعن البرك التي تستمد مياهها من النيل وكانت منازل
للناس كبركة الحبش وبركة الرطلى . وعن الجسور المقامة على
جوانبه وجوانب خليجانه كجسر الطبالة ، وجسر الروضة
والجيزة . وعن الجزر البادية في وسطه ، كجزيرة الروضة ،
وعن بعض منازلها الهامة كالمودج . وفي أحد هذه الفصول
تحدث عن « مقياس النيل » وتاريخه وصفاته وتقسيمه .
هـ — كوكب الروضة : للسيوطي أيضاً . وهو كتاب مخطوط .

تحدث فيه عن جزيرة الروضة وما يتصل بها . ومن ذلك نهر النيل . لقد تحدث فيه عن منبعه ومجرأه ومصبه وخلقائه ومنازحه إلى غير ذلك ، ناقلا عن سبقوه ، وما قيل في ذلك من النثر أو الشعر أو الأخبار .

٦ — بدائع الزهور : لابن إياس المتوفى في نحو عام ٩٣٠ هـ . وموضوعه تاريخ مصر والقاهرة . وقد ضمنه المؤلف طرائف من أخبارها ومن ذلك أخبار النيل وفيضانه وارتفاعه ووفائه والاحتفال به وكسر سد خليجه . وذلك خلال يومياته . وهناك مؤلفات أخرى كسلوك المقریزی والنجوم الزاهرة لأبي المحاسن بن تغرى بردى المتوفى عام ٨٧٤ هـ ، فقد عنيا بذكر أنباء الفيضان والوفاء في أعقاب حوادث كل عام . هذه بعض المؤلفات التي كتبها أبناء مصر في عصر المماليك ، ونوهوا فيها بالنيل وما يتصل به ، فسجلوا بذلك مدى اهتمامهم به . وقد اعتمدنا عليها في المعلومات التي سنقصها عليك فيما يلي . بالإضافة إلى دواوين النثر والشعر .

من معارفهم عن النيل

بمستغرب أن يأسر النهر العظيم قلب الشعب الكريم ليس وأن يشغل حيزاً كبيراً من نفسه وعقله ، ومن إحساسه ومداركه . وسترى كيف كان أثره ضخماً في نفوس أدباء الشعب وشعرائه ، في عصر المماليك . لقد سرح بخيالهم كل مسرح ، وراح به كل مزمار ، وطاف به كل مطاف . لقد تصوروه حبیباً شغل قلب عروسه ، ومولاً كريماً يجيء بالذهب والفضة ، وملكاً راعياً يتفقد أحوال رعيته . إلى غير ذلك مما سنقصه عليك في حينه .

ولم يسلم الجغرافيون من أنبائهم ، والمؤرخون منهم — وهم يتحدثون عن النيل ومنابعه ومجراه — من سرحات الخيال ومداعبات العاطفة .

ولعل هذا الذي نسميه منهم ، اليوم ، خيالا ووهما ، كان في تقديرهم حينذاك ضرباً من الحقيقة . وهذا غاية ما يذهب النفس من السحر والبهر .

على أن شيئاً من خيالهم أو ظنونهم ، كان يحوم حول الحقيقة
التي كشفها العلم حديثاً . كما سترى .

ولقد تابعت أخيراً ، رحلات الكشف إلى منابع النيل
ومساقط مياهه ومسارها في كل ناحية ، ودارت حوله من كل
جانب . حتى رأى الكاشفون هذه المنابع على حقيقتها رأى العين
وصوروها عن خبرة ومعاينة ووضعوا لها المصورات الموضحة
الدقيقة . وأصبحت المعلومات عن النيل في هذه الناحية ،
من مقررات العلم ومساماته . وعاون على ذلك إمكانيات المعرفة
الواسعة في العصور الحديثة .

ومجمل هذه المعلومات ، أن النيل ينبع من المنطقة الاستوائية
ويمر على بحيراتها ، ويدخل أرض السودان في منطقة بحر الجبل
ويسير إلى الشمال باسم النيل الأبيض ، ويلتقى بنهر سوبات والنيل
الأزرق وعطبره ، ويلتقى منها المياه القادمة من الحبشة وبحيراتها
وهي مياه فيضانه . ويصادفه عدة جنادل صخرية في طريقه ،
ويدخل مصر بالقرب من حلفا ، فيمر على أسوان ، سائراً نحو
الشمال ، حيث يتفرع إلى فرعيه ، فرع رشيد وفرع دمياط ،
الذين يصبان في البحر المتوسط .

والمنبع الاستوائى هو المنبع الدائم ، حيث تسقط الأمطار

الاستوائية الدائمة . والمنبع الجبشى هو المنبع الموسمى ، الذى تسقط فيه الأمطار الموسمية الصيفية هناك على جبال الحبشة ، بغزارة ، فتنحت ، وهى منهمة ، جبالها وصخورها السوداء ، وتحيلها إلى هذا الغرين العجيب الخصب .

أما القدماء ، فقد ذهبوا مذاهب ، وهم مسحورون بجلال النيل ، كما سحر الأدباء والشعراء ، وهم فى تصورهم معذورون . إذ كانت وسائل الكشف وأدوات المعرفة لديهم قاصرة .

فن أين يأتى هذا النهر المبارك العظيم ، وبهذا الفيض الغامر من الماء العذب الخصب ، فيهب الحياة والرزق ، ويبشر بالأمل والأمن والسعادة ؟

لا بد أنه يأتى من جهة مباركة مقدسة . . . لا بد أنه يأتى من الجنة . . . فهو إذاً كوثرها . .

إن شعراء مصر ، إلى وقتنا هذا ، يقول أحدهم :
النيل العذب هو الكوثر والجنة شاطئه الأكبر
ولو أن هذا منه على سبيل التشبيه . .

ونحن ذلك فيما يلى ، بشئ من معارفهم فى هذا الصدد ، لنطلعك على مدى اهتمامهم بالنيل وما يتصل به ومدى شغله لبالهم . وليس من هنا هنا تمحيص فكرة ، ولا تقرير رأى ،

ولما العرض الذى يشعرك بمدى الاهتمام — كما ذكرنا —
وروى عن المسعودى قوله : إن نهر النيل من سادات
الأنهار وأشراف البحار ، لأنه يخرج من الجنة .
منابع النيل ومجراه :

وتحدثوا عن منابع النيل ومجراه . فروى القلقشندى وقال
ما ملخصه :

« أما ابتداءه وانهائه ، فاعلم أن ابتداءه من أول الخراب
الذى هو جنوبى خط الاستواء . ولذلك عسر الوقوف على خبره .
وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر » إما بفتح
القاف والميم كما هو المشهور . وإما بضم القاف وسكون الميم .
وقال بطليموس : والنيل ينحدر من الجبل المذكور
من عشرة مسيلات ، بين كل مسيلين منها درجة فى الطول
— المقدم بيانه — والغربى منها ، وهو الأول عند طلوع ثمان
وأربعين درجة . والثانى عند طلوع تسع وأربعين . وعلى ذلك
حتى يكون العاشر منها عند طلوع سبع وخمسين ، كل مسيل منها
نهر . ثم تجتمع العشرة وتصب فى بطيحتين ، كل خمسة منها تصب
فى بطيحة . ثم يخرج من كل واحدة من البطيحتين أربعة أنهار .

ثم تتفرع إلى ستة أنهار . وتسير الستة في جهة الشمال حتى تصب
في بحيرة مدورة عند خط الاستواء تعرف ببخيرة كورى .
فيفترق النيل منها ثلاث فرق :

ففرقة تأخذ شرقا وتذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة
المسلمين على ساحل البحر الهندي مقابل بلاد اليمن .

وفرقة تأخذ غربا وتذهب إلى التكرور وغانة من مملكة
مالى من بلاد السودان ، وتمر حتى تصب في البحر المحيط الغربى
عند جزيرة أوليل ، وتسمى « نيل السودان » .

وفرقة تأخذ شمالا — وهى نيل مصر — فيمر في الشمال
على بلاد زغاوة ، وهى أول ما يلقى من بلاد السودان . ثم يمر
على بلاد النوبة حتى ينتهى إلى مدينتها دنقلة . ثم يمر شمالا
بميله إلى الغرب إلى طول إحدى وخمسين وعرض سبع عشرة
على حاله . ثم يمر مغربا بميلة قليلة إلى الشمال إلى طول اثنتين
وثلاثين ، وعرض تسع عشرة . ثم يرجع مشرقا إلى طول
إحدى وخمسين . ثم يمر في الشمال إلى الجنادل : وهو الجبل
الذى ينحدر عليه النيل بين منتهى مراكب النوبة في انحدارها
ومراكب مصر في صعودها ، حيث أطول ست وخمسون درجة
والعرض اثنتان وعشرون درجة ؛ ثم يمر شمالا إلى مدينة أسوان

في أعمال الديار المصرية على القرب من الجنادل المقدمة الذكر .
ويعر شمالا بميلة إلى الغرب ، إلى طول ثلاث وخمسين ، وعرض
أربع وعشرين ، ثم يشرق إلى طول خمس وخمسين ، ثم يأخذ
في الشمال حتى ينتهي إلى مدينة الفسطاط في قواعد مصر المستقرة :
ويمتد في جهة الشمال حتى يصير بالقرب من قرية تسمى
« شطنوف » من قرى مصر . ويفترق فرقتين ، شرقية وغربية .
فالشرقية تمر في الشمال حتى « المنصورة » إحدى قرى المرتاحية .
فتتشعب شعبتين ، تمر الغربية منهما — وهي العظمى — إلى دمياط
وتصب في بحر الروم . وتمر الشرقية منهما على أشموم طناح
حتى تجاوز بلاد المنزلة وتصب في بحيرة شرقى دمياط حتى
بحيرة تسنيس .

والغربية تمر من شطنوف حتى قرية « أبى نشابة » فتتشعب
شعبتين : الغربية منهما — وهي العظمى — تأخذ شمالا بين عمل
البحيرة من شرقها ، وبين جزيرة بنى نصر من غربها . والشرقية
تأخذ شمالا أيضا بين جزيرة بنى نصر من شرقها . وبين عمل
الغربية من غربها . ويسمى هذا البحر « بحر أيار » حتى
يلتقى مع الفرقة الغربية عند قرية تسمى « الفرستق » فيصير
شعبة واحدة تصب في البحر الرومى غربى رشيد .

وروى المقرئى قال :

« وذكر قوم من أهل الأثر ، أن الأنهار الأربعة ، تخرج من أصل واحد من قبة فى أرض الذهب التى من وراء البحر المظلم . وهى سيحون وجيحون والفرات والنيل . وأن تلك الأرض من أرض الجنة ، وأن تلك القبة من زبرجد ، وأنها قبل أن تسلك إلى البحر المظلم ، أحلى من العسل ، وأطيب رائحة من الكافور . »

وقيل : « إن جبل القمر يتشعب من الجبل المحيط بالأرض . ومن جبل القمر ينصب نهر النيل . وبه أحجار براقية كالفضة ، تتلألأ ، تسمى « ضحكة الباهت » . كل من نظرها ضحك والنسق بها حتى يموت ، ويسمى مغناطيس الناس . »

وقيل : « ومن جبل القمر يخرج نهر النيل . وقد كان يتبدد على وجه الأرض . فلما قدم نقرأوش الحداد بن مصرأيم الأول ابن مركايل بن دوايل بن عرياب بن آدم عليه السلام . إلى أرض مصر ، ومعه عدة من بنى عرياب ، واستوطنوها وبنوا بها مدينة « أمسوس ، وغيرها من المدائن ، حفروا النيل حتى أجروا ماءه إليهم . ولم يكن قبل ذلك معتدل الجرى ، بل ينبطح ويتفرق فى الأرض ، حتى وجه إلى النوبة الملك

تقراوش ، فهندسوه ، وساقوا منه أنهارا إلى مواضع كثيرة من
مدنهم التي بنوها ، وساقوا منه نهرا إلى مدينة أمسوس .
ثم لما خربت أرض مصر بالطوفان ، وكانت أيام البودشير
ابن قفط بن مصر بن يصمر بن حام بن نوح عليه السلام ، عدل
جانبى النيل تعديلا ثانيا ، بعدما أتلفه الطوفان .

وروى المقرئ أيضا أن قدامة بن جعفر ، ذكر في كتاب
الحراج : « أن انبعث النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء
من عين تجرى منها عشرة أنهار ، كل خمسة منها تصب إلى بطيحة .
ثم يخرج من كل بطيحة نهران ، وتجرى الأنهار الأربعة
إلى بطيحة فى الإقليم الأول . ومن هذه البطيحة يخرج
نهر النيل . »

وهو يريد بالبطيحة البحيرة .
وقال أيضا إن قدامة ذكر فى كتاب « نزهة المشتاق إلى اختراق
الآفاق » : « أن هذه البحيرة — يقصد البطيحة — تسمى بحيرة
كورى . وهى منسوبة لطائفة من السودان ، يسكنون حولها ،
متوحشين يأكلون من وقع إليهم من الناس . ومن هذه البحيرة
يخرج لهم نهر غانة وبحر الحبشة . فإذا خرج النيل منها يشق
بلاد كورى وبلاد دينة — وهم طائفة من السودان بين كاتم والنوبة

فإذا بلغ دنقلة مدينة النوبة ، وعطف من غربها وانحدر
إلى الإقليم الثانى ، فيكون على شطيه عمارة النوبة . وفيه هناك
جزائر متسعة عامرة بالمدن والقرى ، ثم يشرق إلى الجنادل .

وقال أيضا : « إن المسعودى رأى فى كتاب جعفر ، النيل
مصورا ظاهرا من تحت جبل القمر . ومنبعه ومبدأ ظهوره من
اثنتى عشرة عينا . فتصب تلك المياه إلى بحيرتين هناك كالبطائح
ثم يجتمع الماء منهما جاريا ، فيمر برمال هناك وجبال . ويخرق
أرض السودان فيما يلى بلاد الزنج . فيتشعب منه خليج يصب
فى بحر الزنج ، ويجرى على وجه الأرض تسعمائة فرسخ ،
وقيل ألف فرسخ ، فى عامر وغامر ، من عمران وخراب ،
حتى يأتى أسوان من صعيد مصر » .

وروى أيضا أن فى كتاب « هروسوس » : « أن نهر النيل
مخرجه من ريف بحر القلزم ، ثم يميل إلى ناحية الغرب ، فيصير
فى وسطه جزيرة : وآخر ذلك يميل إلى ناحية الشمال ، فيسقى
أرض مصر .

وقيل : إن مخرجه عن عين فيما يجاور الجبل ، ثم يغيب فى الرمال
ثم يخرج غير بعيد ، فيصير له محبس عظيم . ثم يساير البحر
الحيط على قفار الحبشة ، ثم يميل إلى اليسار إلى أرض مصر ،

فيحق ما يظن بهذا النهر أنه عظيم ، إذا كان لجراه على ما حكيناه .

وقال : « ونهر النيل — وهو الذى يسمى باون ، مخرجه خفى . ولكن ظاهر إقباله من أرض الحبشة . ويصير له هناك محبس عظيم ، مجراه إليه مائتا ميل . »

وتحدث جلال الدين السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة ، عن منابع النيل ومجراه . فقال :

« قال صاحب سجع الهدير : ذكر جماعة من المنجمين وأرباب الهيئة ، أن النيل يجرىء من خلف خط الاستواء بإحدى عشرة درجة ونصف ، ويأخذ نحو الشمال إلى أن ينتهى إلى دمياط والإسكندرية وغيرها عند عرض ثلاثين فى الشمال .

قالوا : فن بدايته إلى نهايته ، اثنتان وأربعون ومائة درجة ، كل درجة ستون ميلا وثلاث بالتقريب . فيكون طوله من الموضع الذى يتبدىء منه ، إلى الموضع الذى منه البحر المملح ، ثمانية ألف ميل وستمائة وأربعة عشر ميلا وثلاثى ميل ، على القصد والاستواء . »

وقال السيوطى : « ونقلت من خط الشيخ عز الدين بن جماعة من كتاب له فى الطب ، قال :

« منبع النيل من جبل القمر وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة ونصف . وامتداد هذا الجبل خمس عشرة درجة وعشرون دقيقة . يخرج منه عشرة أنهار من أعين فيه ، ترمى كل خمسة إلى بحيرة عظيمة مدورة . بعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب سبع وخمسون درجة . والبعد عن خط الاستواء في الجنوب ، سبع درج وإحدى وثلاثون دقيقة .

وهاتان البحيرتان متساويتان . وقطر كل واحدة خمس درج ، ويخرج من كل واحدة أربعة أنهار ، ترمى إلى بحيرة صغيرة مدورة ، في الإقليم الأول ، بعد مركزها عن أول عمارة بالمغرب ثلاث وخمسون درجة ، وثلاثون دقيقة . وعن خط الاستواء من الشمال درجتان من الإقليم الأول ، وقطرها درجتان . ومصب كل واحد من الأنهار الثمانية في هذه البحيرة غير مصب الآخر . ثم يخرج من هذه البحيرة نهر واحد ، وهو نيل مصر . ويمر ببلاد النوبة ويصب إليه ، نهر آخر ، ابتدأه من غير مركزها على خط الاستواء ، في بحيرة كبيرة مستديرة قطرها ثلاث درج ، وبعد مركزها عن أول العمارة بالمغرب إحدى وسبعون درجة .

فإذا تعدى النيل مدينة مصر إلى مدينة يقال لها «شطنوف»

تفرق هناك إلى نهرين يرميان إلى البحر المالح ، أحدها يعرف
ببحر رشيد ، والآخر بحر دمياط . وهذا البحر إذا وصل
إلى المنصورة . تفرع منه نهر ، يعرف ببحر أشمون ، يرمى
إلى بحيرة هناك . وباقيه يرمى إلى البحر المالح عند دمياط . «
هذا . وقد ذيل السيوطى هذا الحديث ، بمصور يوضح
ما قاله أو نقله ، أبان فيه موضع البحيرات وما يصب فيها أو يخرج
منها من الأنهار أو الفروع — وهو نسق من مصور أبى
الفداء ، تقريبا .

ونقل السيوطى أيضاً ما ذكره الجاحظ فى كتاب
« الأمصار » أن مخرج نهر السند والنيل واحد . واستدل على
ذلك باتفاق زيادتهما ، وكون التماسح فيهما ، وأن سيل زراعتهما
فى البلد واحد .

رحلة كشف عن منابع النيل :

ومن طريف ما رواه الجغرافيون والمؤرخون فى هذا
العصر ، وما تناقلوه ، قصة رحلة قام بها رجل من بنى العيص
يقال له « حائد » ليكشف عن منابع النيل . وهى قصة قديمة
ممعنة فى القدم ، يغلب عليها الخدس ، ويبدع فيها الخيال ،
وتصورها النزعة الأسطورية الشائعة .

و « حائد » هو ابن أبي شالوم بن العيص بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام . الذى عانى هذه الرحلة الشاقة وسائر فيها مجرى النيل ، حتى بلغ منابعه وكشفها ، فاستراحت نفسه . وتلخص فيما يلى :

كان حائد هذا قد خرج هاربا من أحد الملوك ، حتى دخل أرض مصر ، فرأى أعاجيب نيلها . فندب الله ألا يفارق ساحله ، حتى يبلغ منتهاه ، أو يموت دون بلوغه .

وقيل إنه سار ثلاثين سنة فى أرض عامرة ، وثلاثين أخرى فى أرض خربة . حتى انتهى إلى بحر أخضر ، فرأى النيل ينشق مقبلا . فصعد فوق البحر ، فإذا رجل قائم يصلى تحت شجرة تفاح . فسلم عليه وأنس به . فسأله الرجل وقال له : « من أنت » . فقال : « أنا حائد بن أبي شالوم : ومن أنت » فقال الرجل : « أنا عمران بن فلاق بن العيص بن إسحق ابن إبراهيم » . فقال له حائد : « فما الذى جاء بك إلى هنا . ؟ » فقال الرجل : « جاء بى الذى جاء بك . حتى انتهيت إلى هذا الموضع . ثم أوحى الله إلى أن أقف حتى يأتينى أمره » . فسأله حائد عن أمر النيل ، وهل يبلغه أحد من بنى آدم . فقال له عمران : « نعم . بلغنى أن رجلا من ولد العيص ، يبلغه ، ولا أظنه غيرك » .

يا حائد « . فسأله حائد أن يده له على الطريق . فاشترط عليه
عمران — قبل أن يده له — أنه إذا رجع يقيم معه حتى يوحى
الله إليه بأمره . وإذا وجده ميتا دفنه . ثم أخذ يشرح له الطريق
إلى منابع النيل ، وقال له : « سر » كما أنت على هذا البحر ،
حتى تشاهد دابة ، ترى أولها ولا ترى آخرها . فلا يهولك
أمرها . وهى معادية للشمس ، فإذا طلعت أهوت إليها لتلتقمها ،
فيحول بينهما حراس الشمس . وإذا غربت أهوت إليها لتبتلعها .
فاركب هذه الدابة فإنها توصلك إلى النيل . فسر عليه حتى تبلغ
أرضا من الحديد هى وجبالها وأشجارها وسهولها . ثم أرضا
من النحاس هى وجبالها وأشجارها وسهولها . ثم أرضا من
الفضة هى وجبالها وأشجارها وسهولها . ثم أرضا من الذهب
هى وجبالها وأشجارها وسهولها . فإذا جزت هذه الأراضى
انتهى إليك علم النيل .

فسار حائد حتى بلغ أرض الذهب واجتازها . وإذا سور
من ذهب ، وشرفة من ذهب ، وقبة من ذهب ، لها أربعة أبواب .
فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر فى القبة
ثم ينصرف فى الأبواب الأربعة . فأما ثلاثة فتفيض فى الأرض

— وهى الفرات ودجلة وجيحان — وأما واحد فيسير على وجه الأرض ، وهو النيل . فشرب حائد من ماء النيل واستراح ثم اجتاز السور ليصعد . فأثاه ملك وقال له : « يا حائد قف مكانك ، فقد انتهى إليك علم النيل . وهذه هى الجنة ، وإنما ينزل النيل من الجنة . » فقال حائد : « أريد أن أنظر إليها . » فقال له الملك : « إنك لن تستطيع دخولها اليوم . » — ثم إن الملك جاء إليه من الجنة بعنقود من العنب ، فيه عنب أخضر كالزبرجد ، وعنب أحمر كاللياقوت . وعنب أبيض كاللؤلؤ . وطلب إليه أن يأكل منه ولا يؤثر عليه شيئا من أكل الدنيا ، وأنه سيبقى معه العنب مابقى هو حيا .

فعاد حائد ، وركب الدابة ، فأرجعته . ثم انتهى إلى موضع عمران ، فوجده ميتا ، فدفنه — وبينما هو كذلك وإذا بشيخ كالناس ، فى جبهته غرة من السجود ، فسلم عليه وسأله عن حاله ثم قدم إليه تفاحة ليأكل منها ، وزينها له . فأقبل حائد عليها بعد تردد — وكأنه أثرها على العنب — وإذا به يعض يده ... ثم إنه عاد بعد ذلك إلى مصر ، فأخبره أهلها خبره ، وقص عليهم قصته ، ومات ودفن بها .

معلوماتهم عن فيضان النيل وأسبابه :

واهتموا بالحديث عن فيضان النيل وبيان أسبابه ، ونقلوا ما قيل في هذا الموضوع ، وأضافوا إليه .

وقد روى المقرئى أن صاحب كتاب المسالك والممالك ، زعم أن الماء يسافر من كل أرض وموطن إلى النيل ، تحت الأرض فيمده . لأنه يفيض في الحريف . والعيون والآبار حينذاك ، يقل ماؤها والنيل يزيد .

وروى أيضا ما قيل من أن النيل يفيض عن سيل يسيل فيه . وشفع هذا القول بأدلة ثم أبطلها بأدلة أخرى .

وروى أيضا ما قيل من أنه يزيد بسبب المد الذى يكون فى البحر . فإذا فاض ماء البحر تراجع النيل وفاض على الأراضى .

ثم يلخص المقرئى مآراقله من الآراء فى منابع النيل وفيضانه منها ، بقوله :

« والذى تحصل من هذا القول أن النيل مخرجه من جبل القمر ، وأن زيادته إنما هى من فيض البحر عند المد .

فأما كون مخرجه من جبل القمر ، فسلم . إذ لا نزاع

فى ذلك . أما كون زيارته لا تكون إلا من رددع البحرله بما حصل فيه من المد ، فليس كذلك .

نعم : توالى هبوب الرياح الشمالية يعمل على وفور الزيادة ، ورددع البحر له ، إعانة على الزيادة .

ومن تأمل النيل ، علم أن سيلا سال فيه ولا بد . فإنه لا يزال أيام الشتاء وأوائل فصل الربيع ، مأؤه صافياً من الكدرة . فإذا فرغت أيام زيادته ، وكان فى غاية نقصه ، تغير طعمه ومال لونه إلى الخضرة ، وصار بحيث إذا وضع فى إناء ، يرسب منه شبه أجزاء صغيرة من طحلب . وسبب ذلك أن البطيخة التى فى أعلى الجنوب تردها الفيلة ونحوها من الوحوش ، حتى يتغير مأؤها . فإذا كثرت أمطار الجنوب فى فصل الصيف ، وعظمت السيول الهابطة فى هذه البطيخة ، فاض منها ما تغير من الماء ، وجرى إلى أرض مصر . فيقال عند ذلك : « توحم النيل » . ولا يزال الماء كذلك حتى يعقبه ماء متغير ، ويزداد عكره بزيادة الماء . فإذا وضع منه أيام الزيادة شيء فى إناء ، رسب بأسفله طين لم يعهد فيه قبل أيام الزيادة . وهذا الطين هو الذى تحمله السيول التى تنصب فى النيل ، حتى تكون زيادته منها » .

ومن طرائف مرويات جلال الدين السيوطي ، في هذا الموضوع ، ما يتلخص فيما يأتي :

قال : واختلفوا في سبب زيادته . فقال قوم : « لا يعلم ذلك إلا الله » . وقال آخرون : « سبب زيادته عيونه » .

وقال آخرون — وهو الظاهر — « سببه كثرة المطر والسيول ببلاد الحبش والنوبة . وإنما يتأخر وصوله إلى الصيف بعد المسافة » .

ورد ذلك قوم : « بأن عيونه التي تحت جيل القمر تتكدر في أيام زيادته . فدل ذلك على أنه فعل الله من غير زيادته بالمطر » . ونقل السيوطي ما رواه ابن عبد الحكم عن غيره ، قال : « لما فتح عمرو بن العاص مصر ، أتى أهلها إليه ، حين دخل بثونة . فقالوا له : « أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجرى إلا بها » . فقال لهم : « وما ذاك » . قالوا : « إذا كان لثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر ، عمدنا إلى جارية بكر أبيها ، فأرضينا أبيها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في هذا النيل » .

فقال لهم عمرو : « إن هذا لا يكون في الإسلام . وإن الإسلام يهدم ما قبله » .

فأقاموا بثونة وأيب ومسرى ، لا يجرى قليلا ولا كثيرا ،
حتى هموا بالجللاء .

فلما رأى ذلك عمرو ، كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك .
فكتب إليه عمر : « قد أصبت . إن الإسلام يهدم ما كان قبله .
وقد بعثت إليك بطاقة ، فألقها في داخل النيل إذا أتاك كتابي . »
فلما قدم الكتاب على عمرو ، فتح البطاقة ، فإذا فيها :
« من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى نيل مصر . أما بعد ،
فإن كنت تجرى من قبلك ، فلا تجر . وإن كان الواحد القهار
يجريك ، فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك » .

فألقي عمرو البطاقة في النيل ، قبل يوم الصليب بيوم ، وقد
تهيأ أهل مصر للجللاء والخروج منها . لأنه لا يقوم بمصلحتهم
إلا النيل . فأصبحوا يوم الصليب ، وقد أجراه الله ستة
عشر ذراعاً .

وقد زالت تلك السنة السوء عن أهل مصر .

مقياس النيل :

وكان لابد لفيضان النيل وزيادته ، من مقياس يعتمدون عليه
في معرفة الزيادة والنقصان ، لما لذلك من الأثر الحيوى في حالة
البلاد واقتصادياتها ومعنوياتها .

ومنذ القديم اهتمت مصر بقياس مياه النيل ، ونصبت له المقاييس ، ونقل علماءؤها في العصر المملوكي ، ما لمقاييس النيل من أخبار وحوادث .

ونجمل ما عرفوه من ذلك ، فيما يأتي :

أولاً : مما عرفته مصر من مقاييس النيل قبل دخول الإسلام إليها :

مقياس منف : وقيل إن يوسف عليه السلام هو الذي بناه .
ويبدو أنه ظل مستعملاً معتمداً زمناً ما ، بعد دخول الإسلام .
ومقياس آخر : قيل إن دلوكة الملكة العجوز ، أقامته ييلاد إخميم ، وقيل إنها أقامت مقياساً آخر في أنصنا .

ثانياً : مما عرفته مصر من مقاييس النيل بعد دخول الإسلام إليها :

مقياس : قيل إن عمرو بن العاص بناه عند أسوان ، ثم عند دندرة ، ثم عند أنصنا ، وقيل عند حلوان .

ومقياس : بناه عبد العزيز بن مروان — حينما كان والياً على مصر — بحلوان ، وكان يسكن بها : وذلك عام ٨٠ هـ .

ومقياس : بناه أسامة بن زيد التنوخي — إذ كان حاملاً على خراج مصر — بجزيرة الروضة أيام خلافة الوليد

ابن عبد الملك ، ثم أبطل ، وبني بدلا منه مقياساً آخر في الروضة
كذلك عام ٩٧ هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك .

ومقياس : أقامه أو رسمه ، الخليفة المأمون ، بجزيرة الروضة
بدلا من مقياس أسامه بن زيد التنوخي بعد أن هدمه الماء ،
وذلك عام ١٩٩ هـ ، ولكنه لم يتمه ، فآتمه بعده الخليفة المتوكل
العباسي عام ٢٤٧ هـ : وهذا المقياس هو أكبر مقاييس النيل ،
وقد بني في أيام ولاية يزيد بن عبد الملك ، على مصر ، وقد
قدم من العراق المهندس محمد بن كثير ، فتولى أمر بنائه .

ومقياس : يقال إن أحمد بن طولون بناء في الجزيرة أيضاً .
هذا وأهم المقاييس قبل الإسلام ، مقياس منف . وأهمها
بعد الإسلام وأكبرها ، مقياس الروضة الذي آتمه المتوكل
العباسي ، وظل مستعملا في عصر المماليك ، وأمر السلطان
الأشرف قايتباي في عام ٨٨٦هـ بتجديد بعض أماكنه وإصلاح
أساسه .

عمليات هندسية قديمة لجمع مياه النيل وضبط مقاديرها
وصرفها بمقياس :

وسجلوا فيما سجلوه من أخبار النيل ، قصة بعثة أرسلها أحد

ملوك مصر القدماء ، لهندسة منابع النيل ، ولضبط مياهه
ومقاديرها ، توصلا إلى صرفها بمقياس وبمقدار .

وروى هذه القصة المقریزی نقلا عن إبراهيم بن وصيف
شاه . وتتلخص فيما يلي :

« كان الملك البودشير — أحد ملوك مصر القدماء —
قد ملك وتجبّر ، وكان أول من تكهن وتعاطى عمل السحر
واحتجب عن العيون .

ويقال إنه أرسل « هرمس » الكاهن المصرى إلى جبل
القمر الذى يخرج النيل من تحته ، حتى عمل تماثيل من النحاس
وعدّل البطيخة — البحيرة — التى ينصب فيها ماء النيل : ويقال
إنه عدل أيضاً جانبي النيل وقد كان يفيض فى مواضع ، وربما
انقطع فى مواضع .

وهذا القصر الذى فيه تماثيل النحاس ، يشتمل على خمس
وثمانين صورة . جعلها « هرمس » جامعة لما يخرج من ماء النيل
بمعاقد ومصاب مدورة وقنوات يجرى فيها الماء ، وينصب إليها
إذا خرج من تحت جبل القمر ، حتى يدخل من تلك الصور ،
ويخرج من حلوقها .

وجعل لها قياساً معلوماً ، بمقاطع وأذرع مقدرة . وجعل

ما يخرج من هذه الصور من الماء ، ينصب إلى الأنهار ثم يصير منها إلى بطيختين ، ويخرج منهما حتى ينتهي إلى البطيخة الجامعة للماء الذى يخرج من تحت الجبل .

وعمل لتلك الصور مقادير من الماء الذى يكون معه الصلاح بأرض مصر ، وينتفع به أهلها دون الفساد . وذلك الانتهاء المصلح ، ثمانية عشر ذراعاً ، بالذراع الذى مقدارها ثمان وثلاثون إصباعاً . وما فضل عن ذلك عدل عن يمين تلك الصور وشمالها ، إلى مسارب يخرج منها ويصب فى رمال وغياض ، لا ينتفع بها من خلف خط الاستواء . ولولا ذلك لغرق ماء النيل البلدان التى يمر عليها .

صفات مياه النيل :

ووصفوا مياه النيل وذكروا مالها من المحاسن والمزايا ، وما لها من المساوىء والمضار ، ورووا فى ذلك أقوال أسلافهم من العلماء .

وقد روى المقرئ ما قاله الرئيس ابن سينا فى المياه الفاضلة وما اشترطه فيها . ثم قال : « واعتبر ما قاله ، تجد ذلك قد اجتمع فى ماء النيل .

فأوله : أن ماء النيل عين تمر على أرض حرة . ولا يغلب

على ترابه مما يمر به ، شئ من الأحوال والكيفيات الرديئة ،
كمعادن النفط والشب والأملاح والكباريت ونحوها ، بل يمر
على الأراضي التي تنبت الذهب . بدليل ما يظهر في الشطوط
من قراضات الذهب .

وقد عانى جماعة تحويل الذهب من الرمل المأخوذ من شطوط
النيل ، فربحوا منه مالا . وفضيلة كون الذهب في الماء لا تنكسر .
الثاني : أن النيل في جريانه أبداً مكشوف للشمس والرياح .
الثالث أن طينه من طين مسيل مياه مجتمعة من أمطار ، تمر
على أراض حرة . ويظهر لك ذلك من عطرية روائح الطين إذا
نديته بماء .

الرابع : غمورة ماء النيل وشدة جريه التي تكاد تقصف
العمد ، إذا اعترضتها ، وتدفع الأثقال العظيمة إذا عارضتها .
الخامس : بعد مبدأ خروجه من مصبه في البحر المسالح .
قال : وقد تقدم أن من طول مسافته ما لا يجده في نهر غيره
من أنهار المعمورة .

السادس : انحداره من علو . فإن الجنوب مرتفع عن الشمال
لا سيما إذا صار إلى الجنادل انحط من أعلى جبل مرتفع إلى
وادي مصر .

وهكذا ترى المقریزی قال — فيما قاله — إن ماء النيل
فيه الذهب والعطر . .

وتحدث المقریزی عن مساویء مياه النيل ومضارها .
فكان مما قاله :

« وقد عاب ماء النيل قوم . قال أبو بكر بن وحشية في كتاب
الفلاحة النبطية :

وأما النيل فمخرجه من جبال وراء السودان ، يقال لها جبل
القمر ، وحلاوته وزيادته يدلان على موقعه من الشمس . إنها
أحرقته لاكل الإحراق ، بل أسخنه إسخانا طويلا لينا ،
لا تزعجه الحرارة ، ولا تقوى عليه ، بحيث تبدد أجزاءه الراسخة ؛
بل يعتل عليه ، فصار مأؤه لذلك حلواً جداً . وصار كثرة شربه
يعفن البدن ويحدث البثور والدمامل والقروح . وصار أهل
مصر الشاربون منه دمويين محتاجين إلى استفراغ الدم عن
أبدانهم في كل مدة قصيرة . فمن كان عالماً منهم بالطبيعة فهو يحسن
مداراة نفسه ، حتى يدفع عن جسمه ضرر ماء النيل ، وإلا فهو
يقع فيما ذكرناه من العفونات وانتشار البثر والدمامل .

وذلك أن هذا الماء ناقص البرد عن سائر المياه ، قد صير له
الطبخ قواما هو أثخن من قوام الماء ، فصار إذا خالط الطعام

فى الأبدان ، كثر فىها الفضول الرديئة العفنة ، فىحدث من ذلك ما ذكرناه .

ودواء أهل مصر الذى يدفع عنهم ضرر ماء النيل ، إيمان شرب ربوب الفاكهة الحامضة القابضة ، وأخذ الأدوية المستفرغة للفضول .

ولو زادت حرارة الشمس على ماء النيل ، وطال طبخها له لصار مالاً بمنزلة ماء البحار الراكدة ، التى لا حركة لها إلا وقت جزر البحر وهبوب الرياح . وهو أوفق للزروع والمنابت والحيوان « وأورد المقرئى معلومات أخرى فى الموضوع نفسه ، مع تعليقات أخرى . فنكتفى بما سجلناه .

وهكذا ترى أنهم اهتموا بالنيل وما يتصل به من منبع ومجرى وفيضان وكشف عن منابعه ، وأخبار عنه وعن مقياسه وغير ذلك . بالمقدار الذى وسعته معارف زمانهم .



النيل في حياتهم الاجتماعية

باعتباره نهر مصر المبارك ، والدعامة الأولى للحياة للنيل فيها ، نصيب كبير من عناية المصريين واهتمامهم على الدوام . وهو مشغلة لهم في مقدمة مشاغلهم على مدى السنين والأعوام . ولا يزالون يهتمون به وبكل ما يتصل به . ويستغرق هذا الاهتمام جانباً كبيراً من حياتهم الاجتماعية . ويتمثل في عنايتهم بفيضانه ووفائه ، وصلة كمية مائه بزراعة أراضيهم ، وبمقياسه وجسوره وقناطره وسدوده وتصريف مياهه ، إلى غير ذلك ، مما هو مألوف في الحياة المصرية .

وهكذا كان شأن المصريين في عصر المماليك .
وفيما يلي سطور وجيزة ، تصور لك مبلغ اهتمامهم به في العصر المذكور ، من الوجهة العملية ومن واقع حياتهم .

فيضان النيل :

للنيل موسم فيضان في كل عام . يرتفع في إبانه ماؤه ، ويزيد في مجراه رويداً رويداً ، في شهر يوليو وأغسطس وسبتمبر . ويبلغ عادة في شهر سبتمبر أقصى ارتفاع له . ويثبت في أكتوبر

ونوفبر ، أو يأخذ في النقصان رويداً ، ثم ينقص إلى أن يشح ،
ويبلغ نهاية نقصه في إبريل ومايو ويونيو ، وهي شهور التحريق .
وسبب فيضانه — كما نوهنا — هبوط الأمطار الغزيرة على
بلاد الحبشة ، في موسم الصيف ، لهبوب الرياح الموسمية الصيفية
عليها ، آتية من جهة الشرق ، ومارة بالحيط ، ومحملة بالأنجرة .
فتمتلئ وديان الحبشة بالماء وهي روافد النيل — سوبات والنيل
الأزرق وعطبرة — وأهمها النيل الأزرق . فتتدفق في مجراه
مياهها ، وتربو على مياه منبعه الاستوائى الدائم .

ولم تكن هذه المعلومات معروفة لديهم معرفة دقيقة واضحة
محددة ، كما هي معروفة لنا في زماننا هذا . ولكنهم كانوا يعرفونها
أو يعرفون بعضاً منها ، على نمط ما يبناه في الفصل السابق .

وكانت معرفتهم بالفيضان في بلادهم دقيقة . لأنهم يرونه فيها
رأى العيان ، ولأنه ذو أثر مباشر في حياتهم وزراعتهم . ولذلك
عرفوا مواعيد بدئه وزيادته واطراد هذه الزيادة ، وحد الوفاء
وما بعده . وضبطوه .

واعتادوا أن يضبطوا — كأسلافهم — مواعيد الفيضان
ووقت الوفاء ، بالشهور القبطية . وذلك لاطراد الحساب بها
واتساق مواعيدها . وعلى هذا ارتبطت بها مواعيد الزراعة ،
كما سنذكره .

ويبلغ النيل حد الوفاء — عادة — في شهر مسرى ، وعند ذلك يعلنون باستحقاق الحراج .

وقد قال المقرئى : « ويتبدى النيل بالتنفس والزيادة بقية بثونة ، وهو حزيران . وأبيب ، وهو تموز . ومسرى ، وهو آب . فإذا كان الماء زائداً ، زاد شهر توت كله ، وهو أيلول . إلى انقضائه » .

وكان اعتماد الزراعة في مصر ، على مياه الفيضان وارتفاعها . فإذا بلغ الماء ستة عشر ذراعاً ، عم أراضي الحياض ولم تشرق الأرض . وإذا نقص عنها خيف الشرق على الأرض البعيدة والمرتفعة ، التي تعودت أن تسقى في موسم الفيضان . ومن ثم خيف الجذب والقحط والغلاء . وإذا زاد عنها إلى ثمانية عشر ذراعاً ، خيف الغرق وخشى البوار ، وترقبوا انتشار الأوبئة . فإذا عم الماء الأرض بفيضانه وغطاها ، ثم نقص وتراجع انكشفت الأرض ، ثم أخذت سبيلها إلى الجفاف فيزرعها الزراع وينتظرونها إلى وقت الحصاد .

وهذا الرى — هو رى الحياض — وهو الرى المتبع من قديم الزمان إلى العصر الحديث ، بما في ذلك عصر المماليك . فكانت الأرض وزراعتها خاضعة في جملة أرضها ، لمشيئة الفيضان ومقدار زيادته وارتفاعه .

ولم تكن مصر تعرف إذ ذاك ، ما يسمى بالرى الصيفى أو المستديم . ذلك الرى الذى عرفته فى العصر الحديث ، والذى من أجله بنت السدود على النيل ، وما تزال تبنيها ، بل ومن أجله حولت فى أيامنا مجراه وبنت السد العالى . وذلك لتخزن جزءاً من مياهه ، تستفيد منها فى موسم النقصان ، وتستطيع بوجودها تنظيم دورات زراعية طوال العام .

وبدهى أن النهر العظيم ، قبل العصر الحديث ، لم يكن متكبراً ولا شحيحاً ، ولم يكن متأثراً على طالب الماء حينما يستسقيه ، ولم يكن ضئيلاً على أرض مصر حينما تسترويه . ولم يكن مولعاً بحمل مائه إلى البحر ليحرمها إياه وإنما قصور المعرفة عن الحيل والوسائل التى بها ينتفع بمياهه على مدى أوسع ، كان السبب الأول فى هذا الضنّ والتأبى . وكانت الوسيلة الوحيدة ، انتظار ارتفاع الماء .

ورى الحياض بوساطة مياه الفيضان ، وحالة الأرض الزراعية فى أثناء ارتفاعه ، ثم بعد انخفاضه وتكشفها ثم زراعتها وحصادها تصوره رسالة عمرو بن العاص ، التى قيل إنه أرسلها إلى عمر بن الخطاب . ويقول فى نهايتها :

« فبينما مصر يا أمير المؤمنين لأولؤة بيضاء ، إذ هى عنبرة

سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء
فتبارك الله الفعال لما يشاء .

وقد أورد القلشقدى فى صبح الأعشى ، قول المسعودى ،
وهو ترديد لقول عمرو بن العاص وشرح له ، قال :

« وصف الحكماء مصر ، فقالوا : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء .
وثلاثة أشهر مسكة سوداء . وثلاثة أشهر زمردة خضراء : وثلاثة
أشهر سبيكة حمراء .

فاللؤلؤة البيضاء زمان النيل . والمسكة السوداء زمان نضوب
الماء عن أرضها . والزمردة الخضراء زمان طلوع زرعها .
والسبيكة الحمراء زمان هيج الزرع واكتماله » .

مقياس النيل :

ومن أهم مظاهر اهتمامهم بالفيضان ومقدار ارتفاعه ، إقامة
مقياس النيل والاعتماد عليه فى مراقبة هذا الارتفاع .

وقد تحدثنا من قبل عن بعض معلوماتهم التاريخية بشأن
مقاييس النيل . أما المقياس الذى كان قائماً فى العصر المملوكى ،
وكان عليه مدار العمل والمراقبة ، فهو مقياس الروضة الذى أتمه
الحليفة المتوكل العباسى .

ووصف المقرئى هذا المقياس فقال :

« والمقياس عمود رخام أبيض مثنى ، فى موضع ينحصر

فيه الماء عند انسيابه إليه . وهذا العمود مفصل على اثنين وعشرين ذراعاً كل ذراع مفصل على أربعة وعشرين قسماً متساوية تعرف بالأصابع . ما عدا الاثنى عشر ذراعاً الأولى ، فإنها مفصلة على ثمان وعشرين إصبعاً ، كل ذراع ، والأذرع الأولى هي السفلى . وقيل في سبب اختلاف تقسيم أذرعه ما يلي — وقد ذكره المقرئ بنى نقلا عن القضاء عن الحسن بن محمد بن عبد المنعم ، ونقله السيوطى أيضاً :

« لما فتحت العرب مصر ، عرف عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — ما يلقى أهلها من الغلاء عند وقوف النيل عن حده فى مقياس لهم ، فضلا عن تقاصره : وأن فرط الاستشعار يدعوهم إلى الاحتكار ، وأن الاحتكار يدعو إلى تصاعد الأسعار ، بغير قحط .

فكتب عمر إلى عمرو يسأله عن شرح الحال . فأجابه : « إني وجدت ما تروى به مصر ، حتى يقحط أهلها ، أربعة عشر ذراعاً . والحد الذى يروى منه سائرهما حتى يفضل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ، ستة عشر . والنهائتان المخوفتان فى الزيادة والنقصان ، وهما الظمأ والاستبحار ، اثنتا عشرة فى النقصان ، وثمانية عشر ذراعاً فى الزيادة » .

هذا والبلد في ذلك الوقت محفور الأنهار معقود الجسور ،
عند ما تساهوه من القبط ، وخيرة العمارة فيه .

فاستشار أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، علياً رضى الله
عنه ، في ذلك فأمره أن يكتب إليه أن يبنى مقياساً ، وأن ينقص
ذراعين من اثنتي عشرة ، وأن يقر ما بعدها على الأصل . وأن
ينقص من كل ذراع بعد الستة عشر ذراعاً أصبعين . ففعل ذلك
وبناه بحلوان . فاجتمع له بذلك كل ما أراد من حل الإرجاف ،
وزوال ما منه كان يخاف . بأن جعل الاثنتي عشرة ذراعاً أربع
عشرة ، لأن كل ذراع أربع وعشرون إصبعاً . فجعلها ثمانية
وعشرين ، من أولها إلى الاثنتي عشرة ذراعاً . يكون مبلغ
الزيادة على الاثنتي عشرة ثمانية وأربعين إصبعاً ، وهى الذراعان .
وجعل الأربع عشرة ست عشرة ، والست عشرة ثمانى عشرة ،
والثمانى عشرة عشرين .

هذا وقد روى القلقشندى قصة تغيير أذرع المقياس . وعقب
عليها بقوله : قال القضاء : « وفي هذا نظر في وقتنا لزيادة
فساد الأنهار وانتقاص الأحوال . وشاهد ذلك أن المقاييس
القديمة الصعيدية ، من أولها إلى آخرها أربعة وعشرون إصبعاً
كل ذراع بغير زيادة » .

وعلى كل ، فإنه يفهم مما ذكر أن التقسيم لم يكن ثابتا
في كل عصر .

ونقل جلال الدين السيوطى فى كتابه « كوكب الروضة »
عن ابن الوردى فى كتابه « خريدة العجائب وفريدة الغرائب »
وصفا للمقياس القائم حينذاك فقال :

« وقبالة الفسطاط ، الجزيرة المعروفة بالروضة ، وهى جزيرة
يحيط بها بحر النيل من جميع جهاتها . وبها فرج ونزه ومقاصف
وقصور ودور وبساتين . وتسمى هذه الجزيرة « دار المقياس »
وكانت فى أيام بعض ملوك مصر ، يجتاز إليها على جسر من السفن
فيه ثلاثون سفينة . وكان بها قلعة عظيمة تتخربت .

وبها المقياس ، يحيط به أبنية دائرة على عمد . وفى وسطه
فسقية عميقة ينزل إليها بدرج من الرخام دائرة . وفى وسطها
عمود رخام قائم . وفيه رسوم أعداد الأذرع والأصابع ، يعبر
إليها الماء من قناة عريضة » .

هذا وقد أشرنا إلى أن الأشرف قايتباى جدد هذا المقياس .
ومما يذكر أيضا ، أن الأشرف قانصوه الغورى ، بنى بجوار
المقياس ، قصرآ عظيما احتفل بافتتاحه عقب الاحتفال بعيد
الوفاء وكسر السد ، وكان احتفاله به شهما مطربا . وصار

يتردد عليه ويبيت فيه من آن إلى آن ، ولاسيا في موسم الفيضان .
وقد وُكِّلَ بالمقياس من يلاحظ ارتفاع الماء عنده باستمرار
إذا حان موسم الفيضان ، ويبشر الناس بكل زيادة ، ويصعد إلى
السلطان بأخبارها بين الحين والحين .

واشتهر طيلة عصر المماليك اسم « ابن أبي الرّدّاد » . وكان
مختصا بمراقبة المقياس ورعايته وتنظيفه . وإذا بدت معالم الزيادة
في أول موسم الفيضان ، ونبه المقياس على ذلك ، حمل ابن أبي
الرداد البشارة بمناسيب الماء إلى الناس . وصعد بنجرها إلى
السلطان . وهكذا دواليك خلال الموسم كله .

وأصل « ابن أبي الرّدّاد » هذا ، يرجع إلى الفقيه « عبدالله
ابن عبد السلام بن أبي الرّدّاد » المؤذن . وكان أصله من البصرة ،
فقدم إلى مصر وحدث بها . فلما بنى الخليفة المتوكل العباسي ،
مقياس الروضة عام ٢٤٧ هـ ، أمر ألا يتولى أمره إلا رجل من
المسلمين . فاختار القاضي بكّار بن قتيبة — قاضي مصر حينذاك —
الفقيه عبد الله بن عبد السلام ابن أبي الرّدّاد المذكور ، لمراقبة
المقياس ، وأجرى عليه الرزق .

وقد توفي هذا الفقيه عام ٢٦٦ هـ ، وبقي عمله وراثيا في عقبه
وذريته . فظلوا يتوارثونه واحداً بعد آخر ، إلى أن انتهى
عصر المماليك .

وكان للنداء بالزيادة أثر هام في حياة الناس والدولة معا ،
لاتصاله بإحدى نواحي حياتهم الحساسة ، وهى الناحية الاقتصادية
أساس الأمن والخوف .

والمعتاد أن حد الوفاء ستة عشر ذراعا . وعندها يستحق
الحراج — كما نوهنا — وإذا لم يبلغ الماء هذا الحد ، كان
الشمرق . وإذا زاد على ثمانية عشر ذراعا ، كان الغمرق .

ويقول الجلال السيوطى : « ومتى بلغ ستة عشر ذراعا
استحق السلطان الحراج . وإذا بلغ ثمانية عشر ، قالوا : يحدث
بمصر وباء عظيم . وإذا بلغ عشرين ذراعا مات ملك مصر » .

وكانوا يضبطون مواعيد الفيضان بالشهور القبطية — كما
أشرنا — ويقع الوفاء عادة في شهر مسرى ، فيحتفل السلطان
أو من ينيبه عنه ، بعيد الوفاء وكسر سد الخليج ، ثانى يوم الوفاء .
مواعيد الزيادة وطريقة قياسها :

ويوضح القلقشندى مواعيد بدء الزيادة واطرادها وطريقة
قياسها ، فيقول :

« إنه يبدأ بالزيادة فى الخامس من بثونة من شهور القبط .
وفى ليلة الثانى عشر منه يوزن الطين ، ويعتبر به زيادة النيل بما
أجرى الله تعالى العادة به ، بأن يوزن من الطين الجاف الذى

يعلوه ماء النيل زنة ستة عشر درهما على التحرير. ويرفع في ورقة
أو نحوها، ويوضع في صندوق أو غير ذلك. ثم يوزن عند
طلوع الشمس. فهما زاد اعتبرت زيادة كل حبة خروب بزيادة
ذراع على الستة عشر درهما.

وفي السادس والعشرين منه يؤخذ قاع البحر، وتقاس عليه
قاعدة المقياس التي تبنى عليها الزيادة.

وفي السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة، ويحسب كل
ذراع ثمانية وعشرين إصبعا، إلى أن يكمل اثنتي عشرة ذراعا،
فيحسب كل ذراع أربعاً وعشرين إصبعا. فإذا وفي ستة عشر
ذراعا — وهو المعبر عنه بماء السلطان — كسر خليج القاهرة،
وهو يوم مشهود، وموسم معدود، ليس له نظير في الدنيا.
وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة،
وتسير بها البرمذ ويكون وفاءه في الغالب في مسرى من شهور
القبط وفيه جل زيادته. وفي النيروز — وهو أول يوم من
توت — يكثر في الحُلجان والترع عليه، وربما اضطرب لذلك
ثم عاد. وفي عيد الصليب — وهو السابع عشر من توت
المذكور — يقطع عليه غالب بقية الترع.

وقد حكى القضاعي عن ابن غفير وغيره عن القبط المتقدمين

« أنه إذا كان الماء في اثني عشر يوما من مسرى اثني عشر ذراعا فهي سنة ماء . وإلا فالماء ناقص . وإذا تم الماء ستة عشر ذراعا قبل النيروز ، فالماء يتم . ثم غالب وفائه يكون في النصف الأول من مسرى . وربما وفي في النصف الثاني منها . وقد يتأخر عن ذلك . وفي الثامن من بابة يكون نهاية زيادته .
الإعلان بالزيادة :

ويوضح القلقشندی أيضا جانباً من طريقة إعلانهم بزيادة النيل . فيقول :

« وقد جرت عادة صاحب المقياس أنه يعتبر قياسه زمن الزيادة في كل يوم وقت العصر . ثم ينادى عليه من الغد بتلك الزيادة أصابع من غير تصريح بذرع . إلا أنه يكتب في كل يوم رقاعاً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام ، كأرباب الوظائف من الأمراء وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة وكاتب السر وناظر الخاوص وناظر الجيش والمحتسب ، ومن في معناهم فيذكر بعد ذلك ما كانت زيادته في العام الماضي في ذلك اليوم من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع . والبعد بينهما بزيادة أو نقص . ولا يطلع على ذلك عوام الناس ورعاهم . فإذا وفي ستة عشر ذراعا ، صرح في المناداة في كل يوم بما زاد

من الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعاً
عند كل أحد » .

الاحتفال بالوفاء وكسر سد الخليج :

وكان الاحتفال بوفاء النيل تقليداً من تقاليد الدولة ، ورثته
عن أسلافها . وكان عرفاً شعبياً تعودته الجماهير من قديم الزمان .
وتختلف أبعته وعظمته باختلاف الأيام والظروف والشخصيات
المحتفلة . ومع هذا لم يبلغ ما بلغه في العصر الفاطمي .

ويعتبر تخليق عمود المقياس وكسر سد الخليج الكبير إعلاناً
عملياً بالوفاء والاحتفال به .

ويشارك السلطان بنفسه الاحتفال . كما فعل برقوق عام ٨٠٠ هـ
والمؤيد شيخ عام ٨١٦ هـ ، وخُشْقَدَم عام ٨٧٠ هـ والغوري
عام ٩١٧ هـ . وكثيراً ما كان السلطان ينيب عنه نائب السلطنة
أو أتابكي الجند — القائد العام — أو يندب أحد كبار أمرائه
كالاستاد أو الدوادر .

ويقع الاحتفال عادة نهاراً لا ليلاً . وفي عام ٩٠٣ هـ رأس
الاحتفال السلطان الناصر بن قايتباي ليلاً ، ولعلها المرة الوحيدة
في ذلك . ويجرى الاحتفال بأن يركب السلطان أو مندوبه ،
سفينة تتبعها سفن أخرى كثيرة ، ملأى برجال الدولة والجند

تسير بهم إلى المقياس بالروضة . فيشاهدون الماء عنده ؛ ويرون
مدى ارتفاعه . ويخلقون المقياس . أى يطلونه بالحقوق . وهو
نوع من الطيب . ويدورون إلى موضع السد ؛ وهو قائم في
فم الخليج . فيكسره العمال فتتدفق مياه النيل في الخليج . ويقع
ذلك عادة ؛ ثانياً أيام الوفاء .

ثم يا كلون ويشربون ؛ ويلهون أو يسمرون مدة ؛ ثم
يعودون . ويخلع السلطان الخلع ويهدى الهدايا . ومن بينها
ما يهديه إلى ابن أبي الرداد ؛ المبشر بالزيادة والوفاء .
ثم يلي ذلك كسر سدود أخرى ؛ وفتح خلجان أخرى من
خلجان القاهرة وسدودها .

وفي مناسبات الفيضان والاحتفال بالوفاء ؛ قد ينظم الشعراء
والزجالون ؛ المقطوعات أو القصائد ؛ يضمنونها ما توحى به هذه
الأيام السعيدة الحافلة ؛ من جميل الخواطر ونيل المشاعر . وقد
يخرج الناس في سفن نيلية يرتادون بها خلجان مصر ؛ أو يتجمعون
على جانبها ؛ طلباً للمتعة واللهو والتفرج والعبث .

كذلك تكتب « البشارات » النثرية ؛ ويصدرها ديوان
الإنشاء بعبارات مسجوعة منغومة ؛ وتصويرات أدبية شاعرة ؛
وتبعث إلى النواحي لتقرأ فيها إعلاناً بالفيضان والوفاء ؛ وإشعاراً

باستحقاق الخراج . وسنفصل لك الحديث عن هذه البشارات ؛
في سطور قادمة .

وفي بعض السنين قد يأمر السلطان بقراءة القرآن الكريم
في ليلة الاحتفال بجوار المقياس ؛ ويأمر قضاة الشرع بالمبيت
هناك ؛ وكذلك قراء المدينة ووعاظها .

وإذا لم يف النيل في مياعده ؛ فقد يصدر السلطان أمره ؛
فيخرج القضاة والناس للاستسقاء ؛ أو قراءة القرآن والحديث ،
دعاء لله أن يفضل عليهم بالوفاء ؛ واستشفاعا إليه لإجراء الماء
كما وقع عام ٨٦٦ .

وكما يستسقون طلباً للزيادة ؛ يستسقون طلباً للهبوط ؛ إذا
طغى الفيضان وخيف منه الغرق ؛ وخشى الضرر كما وقع عام ٧٦١ هـ .
ومما يذكر أنه في عام ٨٦٦ هـ عند ما لم يف النيل في مياعده
وضج الناس وافتضح خوفهم ؛ وارتفعت أثمان الغلات والبضائع ،
همَّ السلطان الظاهر خشقدم — السلطان إذ ذاك — بهدم
المقياس ؛ حتى لا يستطيع الناس معرفة مقدار الزيادة أو النقص
فنبطه عن ذلك شيخ الإسلام أمين الدين يحيى الأقصرائي .
وخرج الناس للاستسقاء ؛ كما نوهنا .

ومما يذكر كذلك أنه كان يحيى من قبل ؛ من أهل مصر

عند وفاء النيل ؛ ثمن الحلوى والفاكهة والشواء التي يمد بها
السماط بجوار المقياس يوم الوفاء . فأبطل السلطان المنصور
قلاوون ذلك ؛ وجعل نفقات السماط من بيت المال .

من أخبار الفيضان والاحتفال بعيد الوفاء :

ولم تكذب التاريخ التي أرخت لهذا العصر ، وكتبها
مؤرخو مصر الذين عاشوا فيه ، تغفل عاماً ، لم تذكر فيه خبراً
ما عن الفيضان والاحتفال بعيد وفاء النيل . أو تذكر مدى
زيادته أو نقصه ؛ وما اتصل بذلك من شَرَق أو غرق
أو غلاء أو غيره .

وفي السطور التالية نسجل لك جملة ملحظة مختارة من
أخبارها في بعض الأعوام . تختلف فيها بعض الأحداث والوقائع
اختلافاً ما ؛ تشعر كما كان هناك من اهتمام بأمر النيل ؛ ومن
عادات وتقاليد واتجاهات ؛ عند فيضانه أو نقصانه أو طغيانه .
سواء في ذلك ما يتصل برجال الدولة أو طبقات الشعب . فمن
ذلك نقلا عن بدائع الزهور لابن إياس ؛ وعن غيره :

١ — في عام ٦٩٤ هـ وفي النيل في اليوم السادس من أيام
النساء . وبلغ ارتفاعه ١٦ ذراعاً و ١٧ إصبعا . ثم هبط . فوقع

الغلاء وندر وجود القمح . وبلغ سعر الإردب ثمانية مثاقيل ونصفاً من الذهب .

٢ — وفي عام ٦٩٥ هـ في عهد العادل كتبنا المنصوري ؛
شح النيل ووصل اثنتى عشرة ذراعاً ؛ ثم هبط فشرقت الأراضى وزاد
الغلاء ؛ وتعذر العيش على الناس ؛ حتى أكلوا الكلاب والقطط
وسائر الدواب . واستشرى الموت ؛ ثم خفت الوطأة بعد قليل .
٣ — وفي عام ٧١٧ هـ كتب النويرى فى نهاية الأرب تحت
عنوان « ذكر خبر النيل المبارك فى هذه السنة » ما نصه :
« وإنما خصصنا هذه السنة بذكره ؛ لأنه وقع فيه من الغرائب
فى أمره ؛ ما لم يجز بمثله عادة . وذلك أن النيل المبارك وفى
بمقياس مصر فى يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى الموافق
لتاسع عشرين أيب ؛ ستة عشر ذراعاً . وحصل التخليق
وكُسرت الخُلج هذا اليوم . وما وقع مثل ذلك فى هذا
العصر . فإن العادة فى غالب السنين أن يكون الوفاء فى الآخر
من مسرى ؛ وفى الأوسط منه . وربما تأخر عن ذلك ؛ فيكون
فى أيام النسء وأوائل توت . ثم وقف بعد ذلك وأخذ فى النقص
والزيادة . فكانت زيادته إلى آخر مسرى ذراعاً واحداً . ثم
وقف مدة وزاد أخرى . فبلغت زيادته إلى آخر يوم الثلاثاء الثامن

والعشرين من جمادى الآخرة الموافق لتاسع توت سبعة عشر ذراعاً
وتسعة أصابع . وزاد فى يوم الأربعاء عاشر توت خمسة أصابع .
وفى بكرة الخميس الذى يليه تسعة أصابع . وفى يوم الجمعة اثنى عشر
من توت بخمسة أصابع وفى يومى السبت والأحد أربعة أصابع ؛
فى كل يوم أصبعين . فكملت زيادته بمقياس مصر ثمانية عشر
ذراعاً وستة أصابع . ولما غلّق الذراع الثامن عشر غرق كثيراً
من الأدر المجاورة له بساحل مصر والروضة . وغرق الأقباص
والبساتين ؛ وقطع الطريق فيما بين القاهرة ومصر فى عدة مواضع .
فأمر السلطان بقطع الخلجان التى عادتھا تكسر فى عيد الصليب ؛
مثل أبى الرجا والكينونة وغيرها . وذلك قبل الوقت المعتاد .
والعادة جارية أن هذه الخلجان إذا قطعت ينقص بحر النيل بسبب
قطعها نحو ثلثى ذراع ؛ لما ينصب فيها منه . فلم يضطرب النيل لقطعها
ولا توقف ؛ بل زاد ما ذكرناه . ولعله لو لم تقطع هذه الخلجان
العظيمة ؛ كان بلغ فى الزيادة إلى أكثر ما انتهى إليه وعم فساده .
ثم ثبت النيل بعد ذلك على البلاد ثبوتاً حسناً إلى حد الاستثناء
عنه . فأخذ فى النقص . فكان ينقص قليلاً ثم يثبت . ثم ينقص
حتى أخذت الأرض حاجتها من الرى . وهبط والحمد لله .

٤ — وفى سنة ٨١٨ هـ كان الملك المؤيد شيخ الحمودى

شديد الاهتمام بعيد وفاء النيل . وكان يتباهى في يوم كسر سده .
وقد ألزم الأمراء المقدّمين — كبار الأمراء — بأن يتخذ كل
منهم لنفسه « حراقة » — سفينة — زينها وينصب فيها
« الصناجق والكثوسات » الرايات والموسيقى .

فاذا وفي النيل تُعد له « الذهبية » في بولاق ؛ ليركبها إلى المقياس .
وفي السنة المذكورة نزل إلى المقياس وخلق عموده وكسر
السد . والأمراء المقدمون راكبون من حوله في « حرايقهم »
المزدانة . وقد سد البحر من كثرة المراكب من حولهم . وكان
له يوم مشهود لم يسمع بمثله فيما تقدم . وقد فاق في ذلك ما كان
يصنعه أستاذه برقوق .

٥ — وفي سنة ٨٢١ هـ لم يف النيل في مياعده . فزاد الغلاء
فزل الملك — المؤيد شيخ — سعيّاً للاستسقاء . ولبس حبة
من الصوف الأبيض ؛ وعلى رأسه عمامة صغيرة جداً بعذبة مرخاة
خلفه . وعلى كتفه مئزر من صوف أبيض . وركب فرساً بغير
« قماش » حريري ولا سرج ذهبي . واتجه إلى جهة المقياس ؛
ودبح هناك بيده أغناماً وأبقاراً كثيرة ؛ وفرقها على الفقراء
والمحتاجين . كما فرق عليهم في يومه هذا نحواً من ثلاثين ألف
رغيف . وصلى على الرمل من غير سجادة تواضعاً لله تعالى .
فزاد النيل ووفي في أواخر شهر توت .

إلا أن النيل عاد فهبط بسرعة بعد ذلك . وشرق كثير
من الأراضي واستمر الغلاء . وعزت الأقوات سنة كاملة .

وقد حكى السيوطي مثل هذه الرواية ؛ على أنها وقعت عام
٨٢٣ هـ ؛ وروى أن شيخ الإسلام الجلال البلقيني قال للمؤيد :
« بتواضعك ترحم » .

٥ — وفي سنة ٨٥٣ هـ ، وقف النيل عن الزيادة والوفاء .
فرسم السلطان — جقمق العلائي — أن يخرج الناس للاستسقاء .
فخرجوا رجالا ونساء وصبياناً . وخرج العلماء والصلحاء وأعيان
الناس . وخرج القضاة الأربعة ، ومعهم أمير المؤمنين — المستكفي
بالله سليمان — ولم يصحبهم السلطان ، فتألم الناس لذلك . وخرج
الأطفال من المسكاتب وعلى رؤوسهم المصاحف . وخرج النصاري
وعلى رؤوسهم الإنجيل . وخرج اليهود وعلى رؤوسهم التوراة .
ومعهم جميعا الأبقار والأغنام . وهم يقولون : « يا الله ارحمنا » .
ويعموا شطر الصحراء عند الجبل الأحمر ، و نصبوا منبرا
صعد عليه قاضي الشافعية شرف الدين يحيى المناوي فخطب خطبة
الاستسقاء . وأراد أن يحول رداءه ، فسقط الرداء منه إلى الأرض
فتطير الناس من ذلك .

فلما رجعوا من الاستسقاء ، طلع ابن أبي الرداد — المبشر
بالفيضان — ومعه رايات زعفران . وبشر بأن النيل قد زاد
إصبعا . . ففرح الناس بذلك ، وأنعم السلطان عليه بمائة دينار .
ثم إن النيل نقص بعد ، في تلك الليلة إصبعين . وكان قد بقي
على حد الوفاء ثمانية أصابع . فرسم السلطان بكسر السد ،
فكسر . فلم يجر الماء في الخليج إلا قليلا . وأخذ النيل في النقص
بعد ذلك ، فأجذبت الأرض ، وزاد الغلاء ، وماتت الدواب .

٦ — وفي سنة ٨٦٦ هـ لم تبد زيادة النيل إلا قليلا ، في شهر
أبيب . ثم توقفت مدة ، فضج الناس وزاد خوفهم حذرا من
الشرق . وارتفعت الأمان . لذلك رسم السلطان — خشقدم —
للقضاة الأربعة والمشايخ والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ،
ويبيتوا هناك ، ويتلوا القرآن والحديث الشريف ، ثم يدعوا
الله لزيادة النيل .

فأقاموا في المقياس أياما ، ورجعوا دون أن يزيد النيل .
فأرسل السلطان إلى الشيخ أمين الدين يحيى الأقصرائي — وكان
من أكبر علماء زمانه — يستفتيه في ذلك . فرد عليه الشيخ
أن اجتمعوا كل بني العباس — يعني أسرة الخليفة — رجالهم
ونساءهم ، كبارهم وصغارهم . ثم ضعوا في أفواههم شيئا من الماء

يمجونه في إناء ؛ ثم صبوه في فسقية المقياس . — ففعلوا ذلك
فكان فيه البركة وزاد النيل ...

وقيل إن القاضي علم الدين صالح البلقيني ذهب إلى المقياس ؛
وأقام ثلاثة أيام هناك . وفي اليوم الرابع زاد النيل ثلاث أصابع ،
وفرح الناس بذلك . ورجع القاضي علم الدين شاقا من القاهرة
وأمامه الأعلام وحوله المهتاف وضجيج الفرع .

ثم وفي النيل وثبت مدة طويلة في زيادته . وأتاب السلطان
الأمير قائم التاجر ؛ في الاحتفال بالوفاء وكسر السد .

٧ — وفي سنة ٩٠٢ هـ كان السلطان هو الناصر بن قايتباي .
وكانت القاهرة عموج بفتنها . والأمير أقردى الدوادار متغلبا
عليها . وبلغ النيل حد الوفاء في ٢٧ مسرى . ففتح الناس الأمير
أقردى في أن يكسر السد ؛ فأتاب عنه وإلى القاهرة في ذلك .
فلما ذهب وجد أن الشيخ عبد القادر الدشوطي — أحد
الصوفية — فتح جزءا منه . فأجهز هو على البقية ؛ دون
أن يبدو على الاحتفال روعة ولا بهجة . ولم يخرج الناس
للمشاهدة والتفرج لا تشار الفتن .

٨ — وفي سنة ٩١٧ هـ ثقل إليك مؤدى ماسجله المؤرخ الكبير
ابن إياس الحنفى ؛ في أنباء السنة المذكورة بنصه . وفيما ذكره

ما يبين على حسن تصور مقدار اهتمام الدولة والشعب بالنيل
وأعياده حينذاك ؛ وتصور بعض تقاليدهم ومشاعرهم
فى ذلك ، قال :

« فى يوم الأربعاء ١١ جمادى الأولى ؛ كان النيل قد توقف
عن الزيادة ؛ بعد ما كان أشرف على الوفاء . فرسم السلطان —
الغورى — لحاجب الحجاب والوالى بأن يتوجها ويكبسا على
المتفرجين الذين فى الحيام بالروضة . فتوجها إلى الروضة —
أنسباى حاجب الحجاب ووالى القاهرة — فلم يشوشوا على أحد
من المتفرجين . ونادوا بالأمان والاطمئنان ؛ وأن أحدا
لا يجاهر بالمعاصى . وخرقوا بعض الحيام ؛ وكان يوما مهولا .
وسبب ذلك أن النيل كان قد أشرف على الوفاء ؛ وبقي عليه
إلى حد الوفاء خمس أصابع . فزاد فى تلك الليلة أصبعين وتأخر
عن الوفاء ثلاث أصابع . ثم زاد من بعد ذلك أصبعين وتأخر
عن الوفاء يومئذ إصبعًا واحدًا .
وقد ضج الناس لتأخر الوفاء . وأشيع بينهم أن الروضة
كثرت فيها الفسق والمعاصى .

فعند ذلك رسم السلطان لحاجب الحجاب والوالى بكبس

الروضة . فتوجهوا إليها وكبسوا الناس في داخل خيامهم ؛
ولم يفحشوا كل الإفخاش في ذلك .

وكان السلطان قبل ذلك توجه إلى المقياس ؛ وصلى هناك
ودعا إلى الله تعالى بالوفاء .

ثم إنه رسم للقضاة الأربعة بأن يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا
به . وقرأوا هناك ختمة . ومد السلطان أسبطة حافلة . واجتمع
هناك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغيرهم من مشاهير الناس .

ثم في يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى ؛ نزل السلطان إلى
المقياس . فقدموا إليه « الحراقة » المعدة لكسر السد . فنزل
بها واتجه نحو المقياس . وطلع إلى القصر الذي أنشأه على بسطة
المقياس . فأقام هناك إلى بعد الظهر ؛ ومد هناك مدة حافلة .
ثم نزل من المقياس في « الحراقة » ؛ وشق من بر الروضة ؛
فارتفعت الأصوات له بالدعاء . وانطلقت له النساء من الطيقان
بالزغاريت . ولا سيما أن الليلة كانت ليلة وفاء النيل . وكانت
الروضة في غاية البهجة وهي محتبكة الحيام . فكان له يوم مشهود .
واستمر السلطان شاقا في البحر حتى طلع من عند قصر
ابن العيني . فركب متجها إلى القلعة .

وأوفى النيل في تلك الليلة . وكسر في يوم الجمعة ١٣ جمادى
الأولى الموافق ١٥ مسرى .

وقد استبشر الناس بنزول السلطان إلى المقياس ؛ وبوفاء
النيل في تلك الليلة بقدومه إلى المقياس .

وقد قيل :

مولاي إن النيل لما زرتَه حياك وهو أبو الوفا بالأصبع
أرخی عليه الستر لما جئته خجلا ومد تضرعا بالأذرع
وأوفى النيل في تلك الليلة ؛ وزاد عن حد الوفاء أصبعين .
وكان مع السلطان ؛ لما نزل إلى المقياس : الأتابكي سودون
العجمي ؛ والأمير أركاس أمير المجلس ؛ والأمير طومان باي
الدوادار الكبيرة وغيرهم من الأمراء المقدمين والعشرات .

فلما وفي النيل ؛ علقوا الستر في شباك القصر الذي أنشأه
السلطان على بسطة المقياس ثم رسم السلطان للأتابكي «سودون
العجمي» بأن يتوجه ويفتح السد على العادة .

فنزل الأتابكي «سودون» في «الحراقة» ؛ وأتى إلى
المقياس وخلق العمود . ثم اتجه إلى فتح السد ؛ فكسر على
مشهد منه . وكان له يوم مشهود .

وهذه أول مرة يفتح فيها السد بعد ترقيته إلى الأتابكية .

وقد أظهر في ذلك اليوم أنواعا من العظمة . ولكنه لم يصل
إلى من تقدمه من الأتابكة .

فلما فتح السد ، قدموا له فرسا بسرّج من الذهب وكنبوش
ثم طلع إلى القلعة فنخلع عليه السلطان خلعة ثمينة ، على العادة .
وقد سر الناس قاطبة بوفاء النيل ، بعد ما قد أخذ في
الانكسار وتشحطت الغلال . فجاء الفرج من عند الله تعالى .
فكان كما قيل :

إن بحر النيل قد وفى لنا ما عليه من قديم قررا
وقضانا الدين إلا أنه حين وفى ما عليه انكسرا

٩ — وفى سنة ٩٢٢ هـ . أخذ النيل فى الزيادة منذ أواخر
صفر — فى شهر برمهاث — قيل إن سبب هذه الزيادة المبكرة ،
سقوط أمطار غزيرة بأعلى الصعيد ، فأنحدرت سيولها إلى النيل .
ثم اطردت الزيادة — وكان السلطان الغورى قد خرج
إلى الشام لملاقاة العثمانيين — وبلغت اثنتى عشرة ذراعا ، فى غير
أوانها . وخشى الناس اطرادها بهذه الصورة ، فتفرق البلاد ،
وظنوا الظنون .

ثم إن النيل بلغ حد الوفاء ، قبل مسرى باربعة أيام ،

وفرّح الناس بهذا الوفاء المبكر ، ونظموا الأزجال بهذه
المناسبة وتغنوا به . واحتفل الأمير طومان باي — نائب الغيبة —
بفتح السد . فركب « الحراقة » واتجه إلى المقياس ، وخلق
عموده — طلاه بالخلوق أى الطيب — وكان فى صحبته عدد كبير
من كبار الأمراء . ثم عاد إلى بيته فى ركب حافل .
وكانت هذه آخر مرة يحتفل فيها المصريون ، بفتح السد
ووفاء النيل فى عصر المماليك .



النيل في نشرهم الفني

وكان من بين دواوين الدولة ؛ ديوان الإنشاء . وعنه تصدر الرسائل السلطانية والمكاتبات الهامة . ولم يكن يليه إلا كبار الأدباء والمنشئين ؛ من أولى العلم والمعرفة . وكانوا يدجون الرسائل — غالباً — بأساليب أدبية ؛ فيها تفصيل وإسهاب ؛ والتزام لقواعد الكتابة الفنية المرعية آنذاك .

ومن بين هذه الرسائل : « البشارات » وهي من أطرفها . ويتاح للكاتب فيها ؛ فسح من الوصف والمبالغة كثيرة . يشرح فيها خياله ويمرح ؛ حتى يقع الحاطر على ما يروق من جميل الصور وبديع التعبير .

ويكتبون « البشارات » في مناسبات كثيرة . ومن أحب مناسباتها فيضان النيل ووفاءه وكسر خليجه . وما يصاحب ذلك من ملاسبات .

وفيهما يعلنون الناس بوفاء النيل ؛ ويفيضون في وصف بركاته ويمننه ؛ ويشيدون بطيب أيامه وزمانه . وينوهون بما تفيد البلاد منه ومن مائه ؛ من خصب وينع ؛ ونبات وزرع . ويصفون مجراه

وتياره ؛ وماءه ووفاءه وعكره وطينه ؛ وشواطئه وجسوره ؛
وآثاره ومفاته ؛ ومرائيه ومحاسنه ؛ واتصاله بالنبات والزهر
والشجر على جانبيه ؛ وإحاطته بالجزر بكلتا يديه ؛ إلى غير ذلك .
ويبدو لك بوضوح في هذه البشارات — بشارات النيل —
مبلغ شغف منشئها بنيل بلادهم العظيم ؛ ومدى اتصالهم الروحي
بنهرهم المبارك ؛ وكبير محبتهم له وعظيم تقديسهم ؛ وعميق امتزاجهم
به مشاعر وخواطر ؛ ودقة ملاحظاتهم لدقائق محاسنه ومناظره ،
ومبتكرات معانيهم التي هي من صنع وحيه ؛ ومن إلهام تحريره
وجريه ؛ ولونه وصوته وصلاته . مع تعليقاتهم الأدبية
الطريفة السائغة .

على أن كتابة « بشارات النيل » لم يكن أمرها مقصوراً
على « الرسميات ؛ وعلى صدورها من الديوان . بل كان بعض
المنشئين خارج ديوان الإنشاء ؛ يكتبونها في مناسبة وفاء النيل ؛
تقليداً لما يكتب في الديوان ؛ أو معارضة لإحدى رسائل البشارات
التي سبقت كتابتها في مناسبة الوفاء .

وعلى هذا ترى أن « بشارات النيل » كانت غرضاً هاماً
مطروقا ؛ من أغراض النثر الفني في عصر المماليك .
ولأنك في أن عدداً كبيراً من منشئي العصر كتبوا بشارات

الوفاء ؛ وأن كثيراً من هذه البشارات قد فقد مع ما فقد من آثار العصر الأدبية في الشعر والنثر .

على أن القليل الذي بقي منها ؛ ما هو إلا وثائق محبة ؛ وصفحات تقديس ؛ وآيات أدبية قيمة ؛ ودلالات عظيمة تشهد لأهل العصر بنيل شعورهم بنهرهم العظيم ؛ وبجليل شكرهم له على ما أسدى من فضل ؛ وقدم من يد ؛ وأوصل من نعمة .

ونبه هنا إلى أنه إذا بدت لنا في هذه النصوص أصباغ بديعة كثيرة ، وألوان عدة من ألوان الصناعة ، وكنا ممن يفرون من البديع وأصباغه وصناعته ، ينبغي ألا نقف عندها جامدين نعدد المساوئ — مساوئ البديع الذي تنفر منه — ونغفل عما في هذه البشارات من رقيق العاطفة وعميق الإدراك ونبيل الصور وجميل التصوير .

هذا ولم تكن بشارات النيل وحدها ، هي اللون الوحيد بين ألوان النثر الفني ، التي تناولت الحديث عن النيل ووصفه ووصف فيضانه ، وما يتصل بذلك . بل كان وصف النيل ووصف ما يتصل به ، موضوعاً مشتركاً بين عدد من ألوان النثر الفني . لقد كتبوا في ذلك الرسائل والمقامات والمفاخرات والألغاز

وتحدثوا عن النيل في نقصانه وفي طغيانه . وأحاطوا وصفاً بكل
مظاهره وآثره .

وهذا يدلنا على سعة اهتمام الأدباء من كرام المنشئين ، بالنيل
ومحاسنه . ومدى ما شغل من نفوسهم وأفكارهم .

ونعرض فيما يلي نصوصاً يتجلى لك فيها ما ذكرناه . مما كتبه
منشئو هذا العصر !



بشارة

لحبي الدين بن عبد الظاهر

كتبها عن الملك المنصور قلاوون إلى نائب حلب

آرام
الله نعمة المجلس . ولا برحت التهاني إلى ربه
مزفوفة . والأمانى بالنجاح إلى صقعه محفوفة .

والبشائر يهدي إليه منها ما لا يستبعد يبداء ولا يستهول تموفة .
والأقاليم تستدني منها كل ما تغدو له عين الرياض محدقة ، وعين
الكمال مطروقة .

هذه المكاتبه إليه تثنى على مبراته التي لا تبرح إلى السداد
مصروفة . ولا تنفك حمادها على ما يجريه الله من الخيرات
موقوفة . وتفهم بشرى يرى بشرها في أسارير وجوه الغمام .
ونشرها في صفحات النسيم وأعطاف الكأتم .

وذاك ماهياً الله من زيادة النيل الحسنة التصريف . والضيف
الذي يزور البلاد المصرية في كل سنة ولكنه يؤثر التخفيف .
ويأتي ووجهها مغبر ، ونبتها مصفر ، وساكنها مضطر . فما يزول
إلا ونثرها مفتر . وضرعها قد در . وبرها قد بر . وقسم
الخصب لها قد أبر . ورخاؤها قد كر . وجديها قد فر .

ولما كان يوم تكامل وفاؤه ستة عشر ذراعاً

فاتينا المقياس فضمخنا أركانه . وعطرنا مكانه . وقلبا لعموده أهلا
وسهلا بعمود الصباح . وبشير الأرواح . وديوان الفلاحة
والفلاح . والذي هو حقيق بأن يوصف بـ :
دان مسف^ه فوَيْقَ الأرض هيد^ه به
يكادُ يمسك^هه مَنْ قام بالراح

وعدلنا إلى الخليج ، فإذا عليه أمة من الناس يستسقون بل
يستشفون . وأمم كأنهم جان ولكنهم لا يستخفون . ورجعنا
وقد طاف بنا من الحراريق ذوات أجنحة . وربات خواف
وقوادم مترنحة . فاستقبلناهم فقالوا : جاء الخير . وشاهدناهم
فقالوا : هذا سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والإنس
والطير . فأمرنا بالخليج فتلقف ثعبانه ما صنعوا . ووصل
ما قطعوا . وفرق من التراب ما جمعوا .

وانقضى هذا اليوم وبشائره قد ملأت اربى والوهاد .
وهمت وهامت في كل واد . فيبشر بذلك كل مستسقى سحاب
ومستزله . وكل تال كتاب ومرتله . وكل مرهف سيف
ومجرد منصله . وكل حالب ضرع . وكل طالب حرث وزرع .
وكل ذى إبل وشاء . وكل ذى ثغاء ورغاء . وكل ذى صرير
وصليل . وكل ذى تموين وتمويل . وكل ذى تعويض وتمويل .

فإن الجار للجار يفرح . وإذا أصبح هذا بخير ، فليسأل الله ذاك
أن يصبح كما أصبح .

والله يجعل دولتنا بالخصب والنماء تفخر . ويضع البركة حيث
يحصل اليأس ، حتى لا يغدو بعض الممالك من بعض يسخر .
هذا . وترى الكاتب :

قد بدأ بشارته بتحية المرسل إليه داعياً له ، مصطنعاً في ذلك
ألفاظاً منتزعة من البشارة ومعانيها وملائمتها من أمثال : النعمة
والتهاني ومزقوفة والأمانى والنجاح والبشائر .

وأنه ذكر بعد ذلك ، موضوع المكاتب ، وهو أنها تبشره
بما هيأه الله من زيادة النيل .

وأنه صور حال البلاد قبل مجيء الزيادة وتام الوفاء ، وصور
حالتها بعد ذلك . فأحصى نعماً عدة وفوائد جلى تستفيدها البلاد ،
ومنها : انتشار الخصب ووفور الرخاء ، وانقطاع الجذب والغلاء .
وأنه سجل القيام بتخليق عمود المقياس وكسر سد الخليج .
وأنه أشار إلى ما كان في الحفل من اجتماع الخلق للمشاهدة
والفرح مستبشرين بفرحة الوفاء .

وأنه بشر بالوفاء كل محتاج بقضاء حاجته سواء أكان زارعاً
أم أديباً أو جندياً أو ممولاً أو دائئاً أو مدينأ أو غير ذلك من
ضروب الناس .

وأنه أحسن في نقل كثير من الصور التي لا بست موضوع
المكاتبة . ومن ذلك وصفه لمصر قبل مجيئ الفيضان : فالوجه
مغبر . والنبت مصفر . والساكن مضطر . وهي كنايةات عن
انتشار القلق والجذب والحاجة . ثم وصفه لها بعد مجيئ الفيضان
وتمام الوفاء : فالغمر مفتر . والضرع قد در . والبر قد ير .
والخصب قد أبر . والرشاء كر . والجذب فر . وهي كنايةات
عن الفرح والرضا والطمأنينة ، وانتشار الخير وتوافر الغلة
وانقضاء الخوف وانقطاع الغلاء .

وأنه دعا للدولة في الختام دعوة مناسبة للمقام ، وهو توافر
الخصب والنماء ليتسنى لها الفخر على سواها .

وبهذا كله ترى الكاتب قد أكمل عناصر المكاتبة ، من
النحية والدعاء وبيان الموضوع وتسجيل الملابس ونتيجة
الوفاء ثم الختام .

وتراه أيضاً قد عاش في جو هذه البشارة من أول المكاتبة
إلى آخرها . عاش بعاطفته وتفكيره ، وبخياله وتصويره ،
وبلفظه وتعبيره .

رسالة

للشاعر الكاتب جمال الدين بن نباتة

أديب مصر الكبير وشاعرها القدير في زمانه ،
جمال الدين بن نباتة المصري ، يشرع قلمه ويرهف

وهنا

شباته ، ليوفي نيل بلاده حقه من الحديث والوصف .

وكان النيل في إحدى السنين ، قد زاد عن حد الوفاء .
فانبرى ابن نباتة ليصف فيضانه وزيادته وطغيانه ، فوصفه
في رفق وهوادة ، وانساب مع شعوره حتى غدت سطوره
خطرات مبتل في محراب النيل ، أو كلمات عاشق يرتلها في أذن
خليل . أو هي — في الحق — قصيدة غزلية نثرت آياتها ،
ونجوى شاعر رقت همساتها . ومدحة رجل طروب يرى
في ممدوحه المثل الأعلى . فلا يفي يكرر له الحمد والمدح . وينسب
إليه كل صفات الكمال الإنساني . وكأنه تصور النيل ملكا
عظيما أو إنسانا كريما ، أغرق في محبته وأطال في صحبته .
وخبره فوجده حسنا في كل شيء ، وشهما شجاعا وفيما في وعده
ووعيده ، وفي إطاعه وتهديده . وله من الأسد هصره ، ومن
العظيم خيلاؤه ، ومن المستبد جبروته ، ومن المحسن الكريم
بذله وعطاؤه .

وهذا وذاك يشعرك بان السكاتب امتزج بموصوفه وأوصافه
امتزاجا عميقا . فاقدر بذلك على أن يفصح عن خبيثته ومعرفه ،
وآبده ومألوفه ، ونَفْسِيَّهِ وَحَسِيَّهِ .

يقول ابن نباتة :

« وأما النيل فقد استوى على الأرض ، فثبتت فيها قدمه .
وامتد نصل تياره كالسيف الصقيل ، فقتل الإقليم ، وهذا
الاحمرار إنما هو دمه . .

حمرتها من دماء ما قتلت والدم في النصل شاهد عجب
فلم يترك وعدا بل وعيدا إلا وفاه . ولا وهذا بل جيلا
إلا أخفاه . أقبل كالأسد المصور إذا احتد واضطرم . وجاء
من سن الجنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى الهرم . وعامل
البلاد بالخيلاء ، وكيف لا وهو سلطان جائر أيد بالنصر .
قائلا : إن كنت بليت بالاحتراق في أرضكم فأنا أقتص بأن
أرمى في بروق تيارى بشرر كالقصر .

هذا وطالما قابلنا قبلها بوجه جميل . وسمعنا عنه كل خير
خير ثابت ويزيد ، كما قال جميل . وكل بديع من آثار جوده
يصبغ الثرى فيخضر ، بخلاف المشهور عن صبغة النيل . وطالما
خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كمقياسه ذات بسطة . وكنازل

الخصب بقدمه المبارك ذات غبطة . ومنحناه ولاء وثناء ،
 هذا يدور مع الإخلاص بفلک ، وهذا يعذب من البحار بنقطة .
 وكـم ورد إلى البلاد ضيفا ومعه القرى . وكـم أتى مرسلا بمعجز
 آيات الخصب إلى أهل القرى . فهو جواد قد خلـع الرّسـن .
 ساهر في مصالح الخلق ، وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوَسْن .
 جامع لأهل مصر من سقياه ومرعاه ووجهه ، بين الماء والخضرة
 والوجه الحسن . كم بات ستر مقياسه يشمل بظله الغائبين
 والحاضرين . وكـم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونـها تسر
 الناظرين . وبلّغ وبلّغ بخير تياره سلامه . وبات الناس
 بوفائه من حذار الغلاء تحت السـتر والسلامة .

وخلّق صدر العمود ، وكيف لا يُخلّق بشير العباد
 والبلاد . ودعا مصر لأخذ زخرفها ، فسواء قيل : ذات
 العمود أو ذات العماد . وبسط يده ببركة الماء ، فقيل : سلام
 لك من أصحاب اليمين . وخضّب بنانه وأقسم بحصول الخير ،
 فعقد لمخضوب البنان يمين . وأشار إلى وصول المد المتتابع . وقبض
 يده المخلقة على الماء ، فوفت وماخات فروج الأصابع . ونادى
 زائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى . ولت أصابع
 الزيادة ونمت ، حتى قال الناس : ماذى أصابع ذى أيادى .

هذا وقد قربت زرابى الدور المبتوثة بالنمارق . وقال
المقياس : تغطت منا الدرج ، فقال الرجاء وظهرت الدقائق .
فهو عم المنافع ، عذب المتابع ، يشار فى الحقيقة والمجاز إليه
بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النفع المعهود . وأرانا منه الأمان من
الطوفان إلى أن نرد الحوض الورود . وكفى أهل مصر هذه
الخصيبة التى إذا أصابتهم قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون .
ولا ابتلاهم بما ابتلى به قوما وجعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا
ثيابهم ، فإنما يستغشى ثيابه منهم الفقراء فى المطر ، ويجعل أصابعه
منهم فى آذانه المؤذنون .

اللهم إنك ولى النعمة . وأولى برحمة خلقك من فيض
هذه الرحمة » .

مقامة

للكاتب والشاعر الأديب شهاب الدين بن أبي حجلة المغربي
في وصف زيادة النيل وطفياته عام ٧٧٣ هـ

وقد زاد النيل وطفى كذلك ، عام ٧٧٣ هـ . وقاست
البلاد من جرائه أضرارا كثيرة . وقد سن شهاب

الدين بن أبي حجلة المغربي أحد أدباء ذلك الزمان ، شباة قلمه
ودبح هذه المقامة وسماها «المقامة الزعفرانية» . في وصف هذه
الزيادة والطفيان .

وقد جرى فيها على أسلوب القص والحوار ، المعروف في
القصص والمقامات . وبذلك زایل سميت الكاتبين السابقين في
رسالتيهما ، أعنى ابن نباتة وابن عبد الظاهر . والمقامة فن آخر
غير فن الرسالة .

قال ابن أبي حجلة :

« عن أبي الرياش ... قلت : ما وراءك يا عصام . فقد بلغنا
أن النيل تزايد دفعه . وأدى إلى الضرر نفعه . »

فقال : « خذ العفو . ولا تكدر بذكر النيل الصفو .
فقد امتزج بالمعصرات ثجابه . وأعيا طيبب الغيطان علاجه . »

وشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب
قلت : « فما فعل النفير بجزيرة الطير ؟ »

قال : « لم يبق بها هاتف يبشر بالصياح . ولا ساع يسعي
رجل ولا طائر يطير بجناح . إلا اتخذ نفقا في الأرض أو سما
في السماء . أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء . فأفاق الحمام
كحمام في البروج . وترك أرضها كسقاء ماله من فروج . وتلا على
الحمام : آينا تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج . وكم في
سمائها من سر واقع . وبومة تصفر على ديارها البلاقع . ومنهل
في الغراب ميت . سقيت منه القوم وسقيت » .

قلت : « فبمصرنا أزحف عليها بعسكره الجرار . ونقط
مائه الطيار ؟ قلت : فالجيزة » ؟

قال : طغى الماء حتى علا على قناطرها وتجسر . ووقع
بها القصب من قامته ، حين علا عليه الماء وتكسر . فأصبح
بعد اخضرار بزته شاحب الإهاب . ناصل الخضاب . غارقا في
بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحب . وقطع
طريق زاويتها على من بها من المنقطعين والفقراء . وترك الطالح
كالصالح يمشى على الماء . فتنادوا مصبحين . ألا يدخلنها اليوم
عليكم مسكين . وأدركهم الغرق فأيسوا من الخلاص . وغشيم
من اليم ما غشيم ، فنادوا ولات حين مناص . وخر عليهم السقف
من فوقهم فهدت قواهم . واستغاثوا من كثرة الماء بالذين آمنوا
وعملوا الصالحات ، وقليل ما هم . «

قلت : « فالروضة » ؟

قال : « أحاط بها إحاطة الكمام بزهره . والكأس بحباب
خمره . فكأنه فيها بساط أخضر . وكأنه فيها طراز مذهب ،
فلم يكن له فيها بدفع أصابعه يدان . وكم أنشد سرحها حين مرج
البحرين يلتقيان :

أعني كفا عن فؤادي فإنه من البغي سعي اثنين في قتل واحد
قلت : « فدار النحاس » ؟

قال : « أنحس حالها . وأفسد ما عليها ومالها . فدخل من
حمامها الظاهر . وقطع الطريق بالجامع الظاهر . فألحق مجاز بابه
بالحقيقة . ورقى منه على درجتين في دقيقة : كم اغترف ما جاوره
من الغرف غر فا . وأطلق من مائه الأحمر النار بموردة الحلفا .
قلت : « فالخليج الحاكي » ؟

قال : « خرج عسكر موجه بعد الكسر على حمية . ومرق
من قسى قناطره كالسهم من الرمية .
قلت : « فالمنشأة » ؟

قال : « أصبحت للبحر مقره . بعد أن كانت للعيون قرة .
وقيل لمنشيتها : أنى يحيى هذه الله بعد موتها . قال : « يحياها الذي
أنشأها أول مرة » . قد مال على ما فيها من شون الغلال كل

الميل . وتركها تنلو بفمها الذى شفتاه مصراع باهما : « يا أبانا
منع منا الكيل » .

قلت : « فجزيرة أروى ؟ »

قال : « قد أفسد جل ثمارها . وآتى على مقاتها ، فلم يدع
شيئا من رديتها ولا خيارها . أخلق ديباجة روضها الأنف .
وترك قلقلها فى الجروف على شفا جرف .

بعينى رأيت الماء يوما وقد جرى على رأسه من شاهق فتكسرا
طالما تضرع بأصبعه إلى ربه . ولطم برعوسه الحيطان
بما جرى من الماء على قلبه . وتمثلوا بقول الأول :

وأن سألوك يوم البين عن قلبى وما قاسى
فقل قاسى وقل قاسى وقل قاسى وقيل قاسى وقيل قاسى
لم يفده تحصنه من أوراقه بالدرق والستائر . ولا حن عليه
حين تضرع بأصابعه ، فصيح أن السلطان ماء جائر » .

قلت : « فحكر ابن الأثير . » ؟

قال : لم يبق منه إلا الثلث والثلث كثير . قد أدخل من دوره
خائلها . وجعل أعاليها أسافلها . فكلم دار أعدم صاحبها قراره .
ونادى فى عرصاتها المتداعية . إياك أعنى واسمعى يا جارة .
فأصبحت بعد نفعها قليلة جدا . مستولية عليها يد الردى .

شبهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحكك في يومها أبكت غدا .
قلت : « فبولاق » ؟

قال : « إملاق . قد التفت بها من الزلق الساق بالساق .
فأتى منها من النوتية على الصغير والكبير . ومن المراكب ...
على النقيير والقطمير . هذا بعد أن ترك جامع الخطيرى على
خطر . وحيطابه يانعة الثمر . قد دنا قطافها . وحن تلافها .
فكأنى به وقد منع رفده . وتلا على محرابه سورة السجدة . »
قلت : « فجزيرة الفيل » ؟

قال : اقتلع اشجارها ... وعم الوجوه من فرقها إلى قدمها .
قبّل ثرى الموتى فى التخوم . وغنت الوجوه للحى القيوم .
قلت : « فما الحيلة » ؟

قال . « ترك الحيلة
دعها مملوكة تجرى على قدر لا تفسدنها برأى منك أرضى »
وهكذا طاف ابن أبى حجلة المغربى فى مقامته بكثير من
نواحي مصر . ووصف ما ألم بها من طغيان النيل وارتفاع مائه .

دفاع عن مصر والنيل في مراسلة الإخوانية

وتحدث بعضهم في مراسلاتهم الإخوانية عن النيل . وفي خلال أحاديثهم الإخوانية في هذه المراسلات قد يعرضون إلى شيء مما يتصل به . كفيضانه أو طغيانه أو فوائده لمصر أو نحو ذلك .

والرسائل أو المكاتبات التي سبق لنا عرضها والحديث عنها هي بالمقالات الوصفية أشبه . وكلها خالص لوجه النيل من ألفها إلى يأها على وجه التقريب . أما المراسلة الإخوانية فتتناول عادة ، أكثر من موضوع .

وقد روى الجلال السيوطي ما قاله المقرئ من أن الشيخ زكي الدين الحسين ، كتب رسالة من مصر سنة ٥٧٦٢هـ . إلى أخيه وهو بدمشق ، يتشوق إليها ويذم مصر . فأجابه من دمشق يقول :

« يأها الولد العزيز : كيف صمحت فطرتك السليمة . ومروعتك الكريمة . وسيرتك المستقيمة . وصبرك المحافظ . ودينك المراقب الملاحظ . بدم من جنيت نعيمها . وسكنت

حرما . وقلت : مصر ومومها . وسقت عليها القول من كل
 جانب . واستعرت لها التكدير حتى فى المشارب والمساب .
 وهلا ذكرتها ، وقد باكرها نيل النعيم بنعيمه . ولبيل
 النسيم بكأس تنسيمه . وطمى البحر عليها زائرا فأغناها عن
 بكاء السحاب وتجميمه . وعم أعظم أرضها . وعب عبابه فى
 طولها وعرضها . حتى كاد يعلو رفيع قصورها . وتتسور سورته
 شاخ سورها . ومع ذا لا تراه جسورا على ضعاف جسورها .
 قد طبق التهائم والأجناد . وغرق الأكاد والوهاد . وعلا على
 الصعيد والصعاد . وأعاد البرسلطانه بحرا بالازدياد . فإذا ارتوى
 أدام أكباد البلاد . وروى السهل والوعر والهضاب والوهاد .
 وذهب أملاق الأرض بكل ملقة خليج . وانجاب بها فاهتزت
 وربت وأنبئت من كل زوج بهيج . بدت روضة بأملاق مقطعة .
 كزمردة خضراء بآلىء مرصعة . فكم من غدير مستدير .
 كبدر منير . ودقيق مستطيل . كسيف صقيل ... إلخ »
 وهذه المراسلة الإخوانية طويلة كثيرة السطور قوية الدفاع
 عن مصر والنيل . وقد سجلنا هنا من سطورها ما جاء فيه ذكر
 النيل . وهكذا ترى أنه شغلهم وشارك فى كثير من خصوصياتهم .

لغز في النيل

كتبه الأديب أبو بكر بن العجمي

في ألفاظهم تناولوا النيل وصفاته وما يتصل به ،
وجعلوه محوراً تدور حوله أحياناً .

واللغز ضرب من النعمية في الأسلوب . ونوع من الإيهام في التعبير . حتى يبدو من ظاهره معنى لا يراد . فيعمى به عن المعنى الباطن البعيد المراد . ويضطرب ذهن السامع بين الألفاظ ومراميهـا . مترجحاً بين ظاهرها وباطنها . مستخدماً ذكاءه وخبرته ، وبصره بأساليب الأدب ومعاني ألفاظ اللغة للوصول إلى المعنى المطلوب . وتكثر في اللغز الأوصاف والعبارات التي تحتل أكثر من معنى ، والتي تشترك بين أكثر من موصوف . ولهذا لا بد في اللغز من الاعتماد على ألوان من البيان والبديع كالجاز والسكاية وكالتورية والإيهام ، مع ألفاظ التضاد والاشتراك ، ومع الاعتماد على تصحيف الحروف وعكسها وتحريف الشكل في المفردات ، وغير ذلك .

والأديب الملمز وصاف ماهر ، لأنه يعرض أوصاف الموصوف — موضوع اللغز — مبرزاً دقائقها ، ولكن في ثوب معمي

وقالب مهم مشكل، ويضع فيه من الرموز والإشارات، ماعاون
على فتح المغاليق للوصول إلى المعنى المراد. وتجمع الأوصاف
يتضح الموصوف ويعرف.

وفي اللغز — كما رأيت — طرافة أدبية ودعابة إخوانية
وتجاوب ذهني واختبار للذكاء وراحة نفسية. فهو بضاعة من
بضائع الأدباء، وليس ملهاة من ملاهى أوقات الفراغ.
وإليك لغز ابن العجمي، قال:

« سألتك — أعزك الله — عن سائل لا حظ له في الصدقة،
وإن يكن متصل بالنسب بالأشراف. كثير الرجفان من غير أن
يخاف. كم رد سائله نهراً. وغفر وجه قاصده بالتراب قسراً.
مذكر كثير الحيض. لطيف الانبساط سريع الغيظ. يتشعب
ويتكسر. ويتعوج ويتدور. وله خمسون عيناً وأكثر. يحمل
القناطير المقنطرة. ويعجز عن حمل إبرة. سريع الاستحالة.
قلما يلبث على حالة. بعيد الخوض ليس له قرار. يعاجل صفا
وارده بالأكدار. يسكن في تخوم الغبراء. وينم على أحوال
السماء. رقيق القلب على كل عديم وكيف لا وهو الولي الحميم.
يخود بأنفخر الحلى. ولا يرد من نداء مؤملاً. كم عمّر سبيلاً.
وقطع طريقاً وأخاف سبيلاً. وطغى واحترق. وأظهر الحقائق

وهو كثير الملق . وكم علا درجا وحط قدر الدقائق . وقلع
بأصابعه عين كل مارق . وكم طهر أنما من أرجاسها ، وأماط عن
أرض هذا أدناسها ، وكم درأ عن شيخ خبثا . ورفع كهلا وحدثا ،
صيقل يحلو الصدى . ويظهر على شدة البرد تجلدا . كم أباح
محرمًا للعباد . وأكثر الفساد في البلاد . وكم رأينا جارية تجري
لستقرها فيه وتجنح . وتلوح في فلسكه وتسبح . جمع فيه الخوف
والرجاء . والسكدر والصفاء . ومن العجائب أنه كافر وكم أعان
على العبادة أهل الصلاح . وأفاض نزيله بالنية ولم يخش في ذلك
من جناح . فسبحان من جمع فيه الأضداد . وأرسله رحمة للعباد .
ونلاحظ أن الكاتب في خلال لغزه ، قد وصف النيل
جملة أوصاف تدل على التقدير والتقدير ، ومن ذلك : أنه يحمل
القناطير المقنطرة . وأنه رقيق القلب على كل عديم . وأنه يوجد
بأنخر الحلى وأنه لا يرد من نداء مؤملا . وأنه يعمر السبيل .
ويطهر الأمم من الأرجاس . وصيقل يحلو الصدى . ويعين أهل
الصلاح على العبادة ، وأنه أرسله الله رحمة للعالمين .

* * *

وبعد . إذا كان لنا أن نختم هذا الفصل الذي تحدث فيه
شيء من نثرهم الفنى ، عن مدى اهتمامهم بالنيل وشغله لعقولهم
ونفوسهم معاً ، فانطلقوا مفكرين فيه مقدرين له ، فيفيضون

بعواطفهم الجياشة نحوه ، فلنختمه بهذه السطور القليلة التي تتضمن
أحد أدعيتهم لله من أجل النيل ، إذا خرجوا في يوم للاستسقاء
وإليكم دالة على محبة ورجاء .

دعاء

من إحدى خطاب الاستسقاء التي سجلها السيوطي

« اللهم فارح الهم . كاشف الهم . مجيب دعوة المضطرين .
رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها . أنت ترحمنا . فارحنارحمة من
عندك تغتنا بها عن رحمة من سواك . اللهم بقدرتك أجر نيلنا
وبلغ به المنافع . وعم به جميع الأراضي والمزارع . اللهم وقّر
من الجنة مزاجه . وأكثر به البركة ، وادفع به الحاجة . اللهم
أنزل علينا من بركات السماء ، وأنبت علينا من بركات الأرض .
اللهم أنبت لنا الزرع . وأدرّ لنا الضرع . اللهم بالعباد والبلاد
من الاحتياج إليه ما لا يعلمه إلا أنت .

اللهم ارحم ضعفنا وقلة حيلتنا وعجزنا . ولا تؤاخذنا بماجتبه
أيدينا . اللهم قد دعوناك كما أمرتنا فاستجب لنا كما وعدتنا . »

النيل فى شعر الشعراء

حب النيل وتقديسه فى شعر الشعراء ، أروع يبدو ما بدا فى الحياة المصرية . والشعراء — فى أغلب أمرهم — ألسنة صادقة معبرة عن عواطف الشعب ، وعمما يجيش فى نفسه . فهم صдах ومرآته . فإذا كانوا قد استجابوا للنيل ووجهه وجهه ، فإنما دلوا بذلك على مبلغ ما كانت عليه مشاعر الشعب . والحق أن شعراء مصر فى عصر المماليك ، لم يقصروا — كما يزعم بعضهم — فى إبداء شعورهم نحو النيل ، والتعبير عن مشاعر المصريين نحوه ، وتصوير حبه له . وكيف وهو مصدر الخير والبركة ، ومنبع الخير والرزق ، وعليه فى جملة الأمر مدار الحياة وقوام المعيشة .

لقد حنوا إليه إذا غاب ، وتغنوا به إذا آب . ولقوه فى لهفة الحب الواثق ساعة أقبل ، واحتفوا بفيضانه واحتفلوا بوفائه وكسر خليجه . وأنشدوا الأناشيد لدى مقياسه ، وتغزلوا فى أذرعه وأصابه ، وطاقوا بأهازيجهم فى مياهه وخليجانه ، وداروا باغاريدهم حول جزره وبساتينها وأزاهيرها . وخلدوا

كثيراً من مرائيه ومشاهده وآثاره ، وسجلوا كثيراً من
ذكرياتهم وعاطفياتهم عنه .

ومن التعسف في الحكم أن نستقرئ قليلاً من النصوص
الشعرية ، وبناء عليها نرسل هذا الحكم فجاً فطيراً لا إنصاف فيه
ولا عدالة . أو نقف أمام أبيات فيها شيء من الصناعة اللفظية
ونحكم بها وحدها على جملة الشاعر والأحاسيس . أو يخذعنا
زخرف بديعي فيها عن استكناه ما وراءه من عاطفة .

لقد كان عصر المهاليك عصر زخارف في الأسلوب ، وعصر
صناعة بديعية ، ملكت زمام الأذواق والأقلام . وحل ذلك
محل الرضا والقبول في مجالات الأدب والأدباء . ولكن ليس معنى
ذلك مطلقاً أن هذه الصناعة كتبت الخيال أو حجبت العاطفة
أو قضت على المشاعر ، كما يزعم بعضهم ، بل لعلها كانت إحدى
وسائل الخيال إلى الإبداع .
لقد قال صلاح الدين الصفدي :

قالوا علّا نيلُ مصرٍ في زيادتهِ

حتى لقد بَلَغَ الأهرام حينَ طَمَى

فقلتُ هذا عَجيبٌ في بلادِكمُ

أنَّ ابنَ ستةَ عشرٍ يبلغُ الهرماً

وكان النيل إذ ذاك ، قد بلغ فيضانه حد الوفاء — وهو ستة عشر ذراعاً — وارتفع إلى منطقة الأهرام . فسجل الشاعر الحادث الفريد ، وسجل معه تعجبه منه ، وصب ذلك في قالب من التورية والمداعبة بلفظ « الهرم » . ولا ينكر ما في ذلك من النزعة الأدبية . فالشعر ليس ديوانا للحقائق العلمية والأفكار الجافة السافرة ، بمقدار أنه ديوان للتصورات الأدبية والأخيلة الجميلة المثيرة .

ومن الظلم أن نحاسب الشاعر هنا على توريته فقط ، ونغفل عما وراءها من طائفة ومداعبة . لقد فكر الشاعر — ولاريب — في النيل ، وشغله وفاؤه ومظهره ، فصوره في قالب التورية .

هذا ، ويذهب الخيال باديب مصر الكبير ، محي الدين بن عبد الظاهر ، فيسرح به في مسارح الفتنة ، ويثير في نفسه نائرة العجب ، ويمضى به من معنى إلى معنى ، حتى يتصل المعنيان ، ويتعاكسان ، ويقلبان الشاعر بين الإحساس بالإعجاز وبالإعجاب ، وذلك في قوله :

نيلٌ مصري لِمَنْ تَأَمَّلَ مَرَأَى

حُسْنِهِ مُعْجِزٌ وبالحسن مُعْجِبٌ

كَمْ بِهِ شَابَ فَوْدُهَا وَعَجِيبُ

كَيْفَ شَابَتْ بِالنَّيْلِ وَالنَّيْلُ يُخْضِبُ

والبيت الثاني غاية في الدقة تصوراً وتصويراً ، مع سهولة ألفاظه ووضوحها . لقد ذهب خيال الشاعر مع النيل ، وهو يروى الأرض ويسقى الزرع وينمى النبات ويفتح الزهر ، فيبدو أبيض مشرقاً يملأ فود مصر بياضاً . والنيل بمائه وبطينه يكسو الأرض خضاباً . وهكذا اجتمع اللونان في خيال الشاعر : البياض والاحمرار . وهما معاً من صنع النيل وفعل يديه ، وهما مظهر الإخصابه . وذهب خيال الشاعر إلى اعتبار البياض شيئاً ، والاحمرار خضاباً . واجتمع الاثنان . وصانعهما معاً النيل . فكان هذا مشار العجب ومثار الإعجاب .

ولعل الشاعر في قوله : « والنيل يخضب » ، يورى بلفظ « النيل » ويقصد الصبغ .

وفي البيتين يبدو ارتباط وثيق بين حياة مصر وبين النيل ، بهذا التأثير وهذا التأثير .

ورأى الشاعر شمس الدين بن دانيال الموصلى ، إقبال النيل راوياً في تدفقه حديثاً عذبا مسلسلا . فعلى ذلك تعليلاً لطيفاً ،

هو سنحة من سنحات الخيال ورقيق التصور . مزج فيه مزجاً
جملابين معاني الرى والكرم ، كما مزج بين معاني الرى والرواية .
لقد رأى النيلُ فى أرضه شقيقه ، فأكرمه بأن ضمخها له
بمائه المصنل . والمناسبة واضحة بين التضميخ ولون الشقيق ،
والشقيق يُسقى من هذا الماء .

فى كل ذلك أوصاف وصناعة ، ولا ريب ، ولكنها متجهة
إلى إبراز محاسن النهر ، وكشف مفاته ووجوه إبداعه وجمال صنعه .
يقول الشاعر :

كَأَنَّمَا النِّيلُ انْخَضَمَ إِذْ بَدَا
يَرَوَى حَدِيثًا وَهُوَ ذُو تَسْلُسِلِ

لَمَّا رَأَى الْأَرْضَ بِهَا شَقِيقَهُ
ضَمَّخَهَا بِمَائِهِ الْمُصْنَدَلِ

ويتحدث ناصر الدين بن النقيب ، عن النيل ، وكأنما هو
إنسان ذو دراية وإرادة ، وله غناية بضبط أوقاته ، وله رأي فى
ذهابه وإيابه ، وفى فهمه وتقديره لمواعيد حاجة الناس إليه .
يقول الشاعر :

كَانَ النِّيلَ ذُو فَهْمٍ وَلُبٍّ

لِمَا يَبْدُو لِعَيْنِ النَّاسِ مِنْهُ
فِيَأْتِي عِنْدَ حَاجَتِهِمْ إِلَيْهِ وَيَمْضِي حِينَ يَسْتَغْنُونَ عَنْهُ

ولا أدري بالضبط ، متى كان الناس يستغنون عن ماء النيل
في ذلك الزمان . لعل ناصر الدين ابن النقيب — وهو لا ريب
شاعر فطن — يرى أن ذلك الوقت وقت التحريق . وهو وقت
في زمانه لم يكن الناس يزرعون فيه الأرض ، أو لم يكن الزراع
في حاجة ماسة إلى مائه لسقيها . إذ كان الري رى حياض .

وبدهى أن الشاعر يقصد بمجيء النيل ومضيه ، فيضانه وتحاريقه .
واعتقد أن لو عاش ابن النقيب إلى زماننا ، لغير رأيه ، بعد
أن انتشر الري المستديم ، وأقيمت على النيل مشروعات خزن
المياه ، للتحكم في مياهه وفي الفيضان للارتفاع بذلك طول العام ،
مع تقسيم السنة إلى دورات زراعية ، بحيث لا تخلو أرض من
زرعة ، أو من تمهيد لها . وأصبحت الأرض لا تستغنى عن الماء
طول العام .

ويتحدث إيذمر التركي عن سحر النيل وكيميائه ، ويبين
كيف استطاع أن يحيل لجين تربته ذهباً ثم وقف راقصاً مبتهجاً

بما أشاع من حسن ، وما نشر من جمال . وطفق يغنى ومغاني
مصر تسمعه ، ونسمة الريح ترقص الأغصان على أنغامه وأناشيده .
يقول الشاعر .

كَيْمِيَاءُ النِيلِ خَالِصَةٌ قَدْ أَتَيْنَا مِنْهُ بِالْعَجَبِ
كَانَ مِنْ ذَوْبِ الْأَجِينِ فَقَدْ عَادَ بِالتَّوْبِيرِ مِنْ ذَهَبِ
رَاقِصٌ بِالْحُسْنِ مُبْتَهَجٌ فَهُوَ فِي عُجْبٍ وَفِي طَرَبِ
وَمَغَانِي مِضْرَ تَسْمَعُهُ نَعْمَةُ الشَّادِي بِلا صَخَبِ
وَنَسِيمِ الرِّيحِ لَا عِبَهُ فِي خِلَالِ الرُّوضِ بِالْقُضْبِ
وهكذا ألف الشاعر في آياته الثلاثة الأخيرة ، حفلا بهيجاً
فيه الرقص والمغنى والسمع واللاعب بالقضب . .

ويتناول الشاعر نفسه ، منظر النيل وجداوله المناسبة منه ،
وهو مقبل سعيد ، وماؤه يتدفق في جداوله رقراقاً مثل السلسل
فيألتق الحسن بذلك ويشرق . وتكثر ألوان الجمال ما بين مورد
ومصنل . وينطلق ماؤه في قيد الرياح . فياله من مطلق مسلسل ...
ويتجه الشاعر إلى زوارق النيل ، فيراها جميلة المرائى ،
وهي تتحرك محمولة على رقاب الأمواج ، تسعى بها كما تسعى حيات

لينة لدنة ، ركبته عقارب . والأسماء من تحتها ، فضة مما جد
من ذائب مائه .

يقول الشاعر :

أنظرُ إلى النيلِ السعيدِ المُقبلِ
والماءِ في أنهارِهِ كالسَّلسَلِ
أضحى يريك الحسنَ بينَ مُورِدِ
مِنْ لَوْنِهِ حيناً وَبَيْنَ مُصَنَدِلِ
وَيَمُرُّ فِي قَيْدِ الرِّيحِ مُسَلَّسَلًا
يا حُسْنَهُ مِنْ مُطْلَقِ وَمُسَلَّسِلِ
وترى زَوَارِقَهُ على أمواجهِ
منسوبةً للناظرِ المتأملِ
مثلَ العقاربِ فوقَ حَيَاتٍ غَدَتِ
يَسْعَى بها في عَدْوِهَا لا يَأْتَلِي
وَكأنَّما أَشْمَاكُهُ مِنْ فضةٍ
مِنْ جَدِّ ذَائِبِ مائه مِنْ أَوَّلِ

وبين سعادة النيل وإقباله ، ومائه المسلسل المورد المصنل ،
والزوارق الجميلة التي هي موضع النظر والتامل ، والأمناء الفضية ،
شد الشاعر بذكر العقارب والحيات ، وإن كان التشبيه بهما مجبوكا .
وبرهان الدين القيراطي ، تحلو له موارد النيل ومصادره ،
ويدعو ألا يبعد عنه شاطئه ، ويفضله على أنهار الشام ، ويرى
له شيا وأخلاقا حسنة محمودة ، لا تفاضله فيها الأنهار الأخرى .
ويشرب الشاعر بمن حول النيل من الملاح الحسان ، وما ينبت
من غصون بان .

يقول الشاعر :

خَلِيلِي بِمَحْرِ النِّيلِ لَا شَطَّ شَطُّهُ
مَوَارِدُهُ تَحْلُو لَنَا وَالْمَوَادِرُ

فَدَعِ عَنْكَ أَنْهَارَ الشَّامِ وَلَا تَكُنْ
لَكَوَثَرِهِ بِالْندَرِ مِنْهَا تُكَاثِرُ
لَهُ شَيْمٌ فِي الْحُسْنِ ظَاهِرَةٌ عَلَتْ
تَدُورُ عَلَى الْأَنْهَارِ مِنْهَا الدَّوَابِرُ

بجانبه تَمِسى المِلاحُ كأنها

بساتينُ فيها للعيونِ مناظرُ

فكم غُصْنِ باني فيه للعين نرجسُ

وللخد وردُ عاطرُ الزهرِ ناضرُ

وإذا زاد بحر النيل رأى فيه البرهان القيراطى ، عجائبُ

وحسنا وفضلا لا يخفى عن ذوى الفضل ، إذ يصبح ماءً سَكْرِيَّ

المذاق ، وتلعب أمواجه وتراقص ، وتدور من فوقها الجوارى ،

وتجبر القلوب بكسر خليجه .

يقول القيراطى :

إذا زاد بحر النيل زادَ عجائبًا

وحسنا وفضلا ما ختفى عن ذوى الفضلِ

حَلَا منه ماء سَكْرِيٌّ مذاقه

يا جماع أهل الذوق والعقدِ والحلِّ

بروق لإخوان الصفاء مُكرراً

فأكداره عينُ الصفاء لمُستَحلي

وكم لعبت أواجهُ وراقصتُ
ودارتُ به تلك الجوارى على رجلٍ
وجبرُ قلوبِ الناسِ في كسره كما

بمقياسه قد جاز مقياسُ ذى العقل

وجبر قلوب الناس في يوم كسر السد ، حقيقة لا محاز ،
وواقع لا صنعة فيه ، وإن بدا طباقا . وذلك لأنه في يوم كسر
السد تقام الحفلات وتوزع الصدقات ، وتروج الأسواق للبيع
والشراء . هذا فضلا عن أنه يرمز إلى وفاء النيل . وبوفاء النيل
يستحق الحراج ، وهو إيذان بسقى الأرض وتسجيل لجودها
بالحصاد والثمر . وفي كل هذا جبر لقلوب الناس ...

وحقيقة استغل الشعراء لفظي: الجبر والكسر ، في كثير من
الآيات التي تحدثوا فيها عن خليج النيل وسده . وساقوا المطابقة
بينهما فيها ، وتلك بركة من بركات النيل ، وجانب من الثراء
الذي يهبه . وليس الثراء اللفظي أو المعنوي ، وإعطاء القدرة
على التصرف فيه ، شيئا قليلا ... على رغم المكابرين ..

وكما استغلوا هذين اللفظين ، استغلوا ألفاظ: الوفاء والزيادة
والماء الحلو والماء السكرى والذوق ، والسكال ، وغيرها من
ملايسات النيل .

والبرهان القيراطى أحد هؤلاء الشعراء ، وفى جملة شعره
عذوبة ورقة ، ومعنى وجمال تصور وتصوير ، وعمق شعور معاً .
وقد زاد النيل فى عام ، فعبّر عن الزيادة بـ « السمو » .
واعتبر جرى مائه فوق الحصباء والجنادل ، مدداً لفخارها على
المنجوم والشهب . ويقول فى ذلك .

سما نيلُ مصرٍ كلّ بحريّ وجدولُ
فأبحرُها تغنُو له والجداولُ
جرى فوق حصباءِ الجنادلِ فاعتمكتُ

وفاخرتِ الشهبَ الحصى والجنادلُ
ولعب بلفظي : « الوفاء والكسر » ، فقال مستعداً من
أوصاف النيل :

جَفْنِي وجفْنُ الحبِّ قد أحرزاً
وضَفَيْنِ من نِيلِكَ يا مِصرُ
جفنى له يومَ الوداعِ الوفا

وجَفْنُهُ الساجي له الكسرُ
واستعمل : « الكمال والزيادة » ، فنسبهما إليه مع « الفضل »
كما نسب إلى تياره الأوصاف والشيم الطاهرة ... قال :

لنيل مصر كمال في زيادته
وفضله غير مخفي ومكتم.

إذا بدت لك من تياره شيم
رأيت طاهر الأوصاف الشيم

و «حلا» نيل مصر في ذوق القيراطي ، فكان «سكرا»
أغنى النديم عن «السكز» . لذلك يطلب إليك «تكراره» .
وهكذا بلغ ماء النيل لدى هذا الشاعر ، في حلاوته ، مبلغ الحمرة ،
بل فاقتها ، لأنه يغني عنها ، ولا يشعر النديم مع وصفه بحاجة إليها .
يقول القيراطي :

حلا نيل مصر فهو في الذوق سُكْرٌ
وأمداحه في كثرة عدد القطر

فكرز على سمني أحاديث وصفه
فسكرها يغني النديم عن السكر

وتبارى الشعراء وتسابقوا في وصف كسر الخليج وبيان
فضله وذكر ميغاده ، وما يتصل بذلك أيام فيضان النيل . وذكروا
المقياس ووروا بأذرعه وأصابه ، وشبوا به وبمنازحه ، وسجلوا
له أياما من أيامه ، وليالى من لياليه .

يقول إياس بن عبد الله الذهبي في كسر الخليج :

كُسِرَ الْخَلِيجُ وَكَانَ ذَلِكَ نِعْمَةً

سَرَّتْ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ بِسِرِّهِ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْغَرَائِبِ أَنَّهُ

جُبِرَتْ قُلُوبُ الْمُسْلِمِينَ بِكُسْرِهِ

ومثله قول الشاعر شمس الدين بن المشد :

لِلَّهِ دُرُ الْخَلِيجِ إِنَّ لَهُ تَفْضُلًا لَا نَزَالُ نَشْكُرُهُ

حَسْبُكَ مِنْهُ بَأَنَّ عَادَتَهُ يَجْبُرُ مَنْ لَا يَزَالُ يَكْسِرُهُ

ويذكر ابن إياس الحنفي المؤرخ ، وفاء النيل وكسر خليجه

وجبر القلوب به ، ويورى فيها وفي غيرها ، ماشاء له صناعته . قال :

يَا نَيْلَ مِصْرٍ كَمْ يَدٍ لَكَ بِالْوِفَا

أَوَّلَيْتَنَا بِالْكَسْرِ جَبْرًا دَائِمًا

قد زدت قبل الكسر خمس أصابع

كَرَّمَا فَكَانَتْ لِلْوِفَاءِ خَوَاتِمًا

وينتزع تقي الدين ابن حجة الحموى توريته من ملابسات

النيل ، فيقول ، وهو يمدح الملك المؤيد شيخا يوم كسر الخليج

— وكان قد بلغه أن الأمير نوروز الحافظي ثار في وجهه ييلاد
الشام ، ووصل إلى غزة محارباً — ويتنبأ ابن حجة بهزيمة
نوروز ، فتتحقق نبوءته :

أَيَا مَلِكًا بِاللَّهِ صَارَ مُؤَيَّدًا

وَمُنْتَصِبًا فِي مُلْكِهِ نَضْبَ تَمِيرٍ

كَسَرَتْ بِمِسْرَى نِيلَ مَصْرَ وَتَنْقُضِي

وَحَقِّكَ بَعْدَ الْكُسْرِ أَيَّامُ نِيرُوزِ

والنيروز عيد يعقب يوم الكسر . وقد قتل الأمير نوروز
بعد قليل .

والبيتان ، وإن كانا غير موجبين إلى وصف النيل ، يدلان
على المدى الذي يشغله النيل وأيامه من نفس الشاعر ، فاعتمد
على بعض المعاني المتصلة به ، في استحداث معان أخرى .

وللشهاب المنصوري دفقة شعوريه عميقة ، ترجمها شعرا ،
طاف به وبأبياته حول النيل في عيد وفائه ، حتى أودعها
مراثيه ومشاهده .

لقد حمد الله في أول أبياته على وفاء النيل ، واعتبر ذلك
وفاء من محبوب ، ووفاء المحبوب مأمول . ونعى في آخر أبياته

على من يرغب عن نيل مصر ، واعتبره غافلا ، وعالنه بأن قلبه
محبول على حب هذا النيل .

وما بين البيتين — الأول والآخر — صور وأخيلة ، من
صور النيل ومشاهده الجميلة ، ذات الحسن وذات النعمة . وبذلك
كله صارت أبيات هذا الشاعر تسبيحا نبیلا ، ودعاء لله وصلاة
في يوم الوفاء .

لقد تابعت عين هذا الشاعر الوصاف ، جواد النيل في جريه ،
ورأى زبد الأمواج يحجل سيقانه ، والنيل لا يسعى إلا إلى
الخير ونشر الحصب . ورأى حبه طافيا ينثره ، فكأنه منهل
للراح . وشاهد نسيم الصبا ييا كره في الصباح ، فيجعد صفحته
فتبدو كاللأمة . وراقب الريح تسل أمواج النهر صوارم تقتل
محل الأرض . وتابع السفن على سطحه وهي جوار غادية مزدانة ،
تزورك وتصلك وتهب لك ما تشتهي ، دون عسر أو ممانعة ،
فازارها قبل أن تلقاك ، محلول ... فما أطوعها ..

ويأبى خيال الشاعر البارع ، ويأبى إحساسه العميق ،
إلا أن يقيم من الأمواج والشط وخرير الماء والروضة والأغصان
والزهر وأوراق الدوح وعناقيدها وغيرها ، حفلا ، أو قل
عرسا مكتملا ، تغشيه الفرحة ويحدوه السرور .

فالشط دف والأمواج تلعب به ، والخير يغنى باطراد ،
وجزيرة الروضة فانية حسناء شغل النيل قلبها ، والأغصان تيمس
وترقص وتشرب من الماء فيحلو ريقها . وقد لبست من حلل
الزهر الحضر ما لبست ، ووضعت على سورها الأكاليل ،
وامتدت أوراق الدوح خياما مظلمة ، ولاحت العناقيد كالقناديل
وتدلت العناكيل قلائد من الياقوت ، تحلى بها النخيل . . .
إلى آخر ما صور يراع الشاعر المبدع ..

إن هذا الفرح الشامل ، والحفل الملتئم ، إنما شمل نفس
الشاعر والتأم معها . جال في خاطره ونما في خياله واتسعت له
نفسه . مم فاض على لسانه معبرا عما وعاه في حسه الباطن ، من
فرح بالنيل واحتفاء بوفائه .

قال الشهاب المنصوري :

الحمد لله أوفى وعدهُ النيلُ

إنَّ الوفاء من المحبوب مأمولُ

جرى جواداً فمن داراته غررُ

له ومن زبدِ الأمواج تهجيلُ

يُنْظَمُ الحَبَبَ الطافي وينثره
كَأَنَّهُ مِنْهُلٌّ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ «مَعْلُولُ»
كَأَنَّهُ وَالصَّبَا صُبْحًا تَجْعُدُهُ
مِنْ نَسَجِ دَاوُدَ فِي الْهَيْجَا سِرَاوِيلُ
كَأَنَّ أَمْوَاجَهُ وَالرَّيْحُ تَنْشُرُهَا
صَوَارِمُ بَظْبَاهَا الْمَحْلُ مَقْتُولُ
كَأَنَّمَا السُّفُنُ غَادَاتُ جَرِينٍ بِهِ
لَهَا الْمِرَاسِي شُنُوفٌ أَوْ مِرَاسِيلُ
مِنْ سُكْلٍ جَارِيَةٍ كَالْخُودِ زَائِرَةٍ
لِإِزَارِهَا قَبْلَ أَنْ تَلْقَاكَ مَحْلُولُ
كَأَنَّمَا الشَّطُّ وَالْأَمْوَاجُ تَلْطِئُهُ
دَفُّهَا وَخَرِيرُ الْمَاءِ مَوْصُولُ
كَأَنَّمَا الرُّوضَةُ الْغَنَاءُ غَانِيَةٌ
بِحُسْنِهَا قَلْبُ هَذَا النَّيْلِ مَشْغُولُ

أغصانها من غُصُونِ الدَّوحِ مائِسةٌ
وريقها من زلالِ الماءِ معسولُ
من سندسِ الزَّهْرِ الزَّاهِي لها حُلَلُ
خُضْرٌ ومن سُوْرها العَالِي أكَالِيلُ
وَمَدَّتِ الدَّوْحُ مِنْ أَوْرَاقِهَا خِيَمًا
ومن عناقيدها لاحت قناديلُ
وللنخيل إذا ماست قلائدُ مِنْ
حمرِ اليواقيتِ حاكتهَا العَنَّاكِيلُ
لا غَرْوَ أَنْ سَحَرَتْ عَيْنِي وَخَيَّلَ لِي
بأنها ذهبٌ وهى التَّمَائِيلُ
يا من له رغبةٌ عن نيلِ مصرَ أَفَقُ
قلبي على حبِّ هذا النيلِ مجبولُ
وبدر الدين البشتكى يذهب هذا المذهب فى حب مصر وعشق
نيلها ، واحتفال نفسه بوفائه ، وابتهاج خاطره بما يصاحب الوفاء ،
من مظاهر الحياة والنشاط .

وهو على حبه لمصر ، وكرامتها عنده إلى درجة يهون على نفسه أن تهون دونها ، وتبقى لها هي قداسها وكرامتها ، يتأبى قليلا على هواها ، تأبى العاشق الغاضب ، والمحبة العاتب ، ويتردد دون الإقامة فيها . . . فلعل هناك من أمور الحياة ما كان يشق عليه ، ويدفعه حينذاك إلى هذا التأبى والتردد .

لقد ذكر أنه رأى ربيع العيش فيها محرما ، وأن النيل إذا ما طمى ازداد الفتى ظمأ . أعتقد أن هذه رموز إلى ما كان يشق عليه حينذاك ويشقيه ، من ضيق عيش أو تسكر حياة ، أو حبود صديق ، أو نحو ذلك من أكدار الحياة . وما كان أكثرها في ذلك الزمان .

على أن الشاعر لم يصبر طويلا على ترديد هذه النغمة ، وسرعان ما عاد الصفاء إلى نفسه وحديثه ، وعاد الحب طاغيا على أحاسيسه ، وشاع الفرح والرضا على مشاعره ، فنطقت بذلك كله أبياته حيث يقول :

خليلى من مصرٍ أشيرا على فقى
يهونُ عليه أن تهونَ وتُكرما

أُرحلُ عنها أم أقيمُ فإنني
رأيتُ ربيعَ العيشِ فيها مُحَرَّما

نعم وأنالُ النيلَ في مصرَ إنه
إذا ما طمى يزدادُ فيها الفقى ظمًا
على أننى أهوى هواه وناظري
إذا ما جفأها أنجمَ الدمع أنجمًا
فذلك أيامَ الوفاءِ بروضةٍ
وشملي على منشورها قد تنظما
إذا المشتهى المعشوقُ جادَ بُمتهى
مرايى وبالمقياسِ همى تقسمًا
وكم من حسودٍ سرَّه سوءَ حالتي
فلما رآني في البريم تبرمًا
كأنَّ الغصونَ المائساتِ رواقصُ
شربنَ مُداما حلَّ ثمَّ مُحرمًا

والشاعر يتحدث عن جزيرة الروضة ، وعن بعض منازحه
مصر ، وهى المشتهى والمعشوق .

وعلى نمط من هذا الشاعر ، يمدح شهاب الدين بن أبى حجلة
المغربى ، الأمير يلغا العمرى يوم أن قام بكسر الخليج نأبًا

عن السلطان . فلما يلبث الشاعر ، وهو في غمرة المدح ، أن ينساب
إلى النيل ، فيعمر أبياته بذكره ، وبأوصافه ونعت مشاهدته .
وقد استهل قصيدته بقوله :

أتاني من نحو الحبيب بشير

فكدت إليه بالسرور أطير

حيثُ إذا ملاحَ دينارُ خدِّه

فإني إليه ما حييتُ فقيرُ

وهو مستهل بارع ، كما ترى ، لمناسبته لموضوع القصيدة ،
ولأنه يتحدث بوضوح ، عن نوع العاطفة التي دفعت الشاعر إلى
النظم ، وهي العاطفة التي صاحبته في جميع أبياته ، وتلك دلالة
على صدق شعوره ، واندماج نفسه بمعاني الوفاء ..

فالشاعر أتاه بشير من قبل حبيبه ، ولا بد أنه بشره بوصوله
أو بوصاله ، فكاد من أجل ذلك يطير سرورا . وبين هذه
المعاني وبين وفاء النيل ، مناسبة واضحة .

وانتقل الشاعر بعد ذلك ، وبعد أبيات ، إلى ذكر النيل
والتشبيب به ، واندفع به شغفه إلى التحليق بحيماله والطواف
بمصورته ، ليجمع من زوايا خاطره ما استطاع من محاسن
النيل ومفاته .

لقد رأى قلاع الزوارق البيض ، رايات على النيل معلنة
بالوفاء . ورآه حصنا مصر حصنها في على سعدها ، وبه دارت
سواقي مصر في كل روضة ، تقتل الجذب وتثير الحصب . وطير
الماء يبشر فتعم الفرحة . وحباب مائه كأنه كواكب تضيء ،
وكان مائه يزحف بكتائب وعسكر جرار ، وشقيق الروض
حول أفاقه ، حدود وثغور ، وقدود الغيد في روضه غصون
فوقها بدور ...

بهذا النغم المشحون بالحبة ، المليء بالتقدير ، يسوق ابن أبي
حجلة آياته ، فيقول :

أَرَى الرَايَةَ الْبَيْضَا عَلَى النِّيلِ بِالْوَفَا

إِذَا لَاحَ لِي قَلْعٌ عَلَيْهِ كَبِيرُ

وَحَصْنٌ مِصْرًا فِي عُلَى السَّعْدِ عِنْدَمَا

غَدَا وَلَهُ حَوْلَ الْمَنَازِلِ سَوْرُ

وَدَارَتْ سَوَاقِي مِصْرَ فِي كُلِّ رَوْضَةٍ

عَلَى مِثْلِهَا كَانَ الْخَصِيبُ يَدُورُ

وَبَشَّرَ طَيْرُ الْمَاءِ فِيهِ غَرَابَهُ

فَكَادَ بِأَرِيَشِ الْقَلَاعُ يَطِيرُ

نعم طارَ فوقَ الماءِ وهو مُخلَقٌ
وعَمَ البرايا فرحةً وسرورُ
ويقول :

كَأَنَّ حَبَابَ الْمَاءِ فِيهِ كَوَاكِبُ
تَضِيءُ فَتَبْدُو تَارَةً وَتَغُورُ
كَأَنَّ لَزْخَفِ الْمَاءِ فِيهِ كِتَائِبُ
لِعَسْكَرِهَا الْجَرَارِ فِيهِ عُبُورُ
كَأَنَّ شَقِيقَ الرُّوضِ حَوْلَ أَقْلَاحِهِ
خَدُودٌ عَلَى وَجْهِ الرِّبَا وَتَغُورُ
كَأَنَّ قُدُودَ الْغَيْدِ فِي الرُّوضِ حَوْلَهُ

غُصُونٌ وَمِنْ فَوْقِ الْغُصُونِ بِدُورُ
ومدح ابن أبي حجلة أيضاً ، خليفة عصره أمير المؤمنين
المعتضد بالله أبا الفتح ، عام ٧٦٢ هـ ، فأنساب أيضاً الانسيابة
نفسها ، إلى ذكر النيل ، ووثب بجياله إلى صورهِ الجميلة ،
الوثبة نفسها .

فيراها ، إذا ما بدا وماؤه كدر ، صفا به عيش البرية .

وشنف سمع الأرض بالقرط ، وحلى جيد الروض بالزهر ،
فباح نمامه بطيبه ، وجلا خد الشقيق بحمرته . ويرى له تكرما
وهو في أرض الكرم : فيسقى أشجارها ودواليها . . .
يقول ابن أبي حجلة عن النيل ومصر ، ويورى بعض ألفاظه :
إذا ما بدا والماء فيه مُكَدَّرُ

رَأَيْنَا بِهِ عَيْشَ الْبَرِيَّةِ صَافِيَا
يُشْنَفُ سَمْعَ الْأَرْضِ بِالْقُرْطِ دَائِمًا
وَيَتْرَكُ جَيْدَ الرُّوْضِ بِالزَّهْرِ حَالِيَا
يَذْكُرُنِي رَشْفَ الثَّغُورِ أَقْلَحُهَا
وَلَمْ أَكُ نَاسِيَهَا وَلَا مُتَنَاسِيَا
فَكَمْ رَوْضَةٍ تَمَامُهَا عَرَفُ طَبِيبِهِ
إِذَا مَا أَمِنَّا عَدْلَهُ بَاتَ وَاشْيَا
بِفَمٍّ عَلَى خَدِّ الشَّقِيقِ إِذَا غَدَا
بِرَوْضَتِهِ الْفِيحَاءِ بِالْحَالِ جَالِيَا
فَللنَّيْلِ فِي أَرْضِ الْكُرُومِ تَكْرُمُ
يُرَوِّى بِهَا أَشْجَارَهَا وَالدَّوَالِيَا . . الخ

ومما يدل على أن النيل كان شغلا شاعرا لشعراء مصر
 في عصر المماليك — وإذا نحن لم نستثن منهم واحدا في هذا
 المقام ، لا نكون مبالغين — أن أحدهم وهو الأديب الدين بن
 الحاجب نظم فيه مجموعة من الأشعار مستقلة ، سماها : « مقطعات
 النيل » .

قال الجلال السيوطي : « إن بدر الدين هذا نظم « مقطعات
 النيل » ، وأفردها في ديوانه في جزء منه بهذا الاسم ، وهي
 مقطعات كثيرة العدد ، تدور حول وصف النهر وبيان محاسنه
 ووصف مائه ورياضه ومقياسه ووفائه ، إلى غير ذلك .
 وقد سجلها السيوطي — أو سجل بعضها — في كتابه
 « كوكب الروضة » .

ومن هذه المقطوعات قوله يفضل نشر رياض النيل على
 روائح الشباب ؛ لأن النيل يسقيها :

قد فاحَ للريّاضِ نشرٌ عَطرٌ

أطيبُ من رَوائحِ الشَّبَابِ

وكيفَ لآ والنيلُ يَسْقِي دَوْحَهُ

من مائه المَصْنَدِلِ المَذَابِ

ومنها قوله يذكر مسك النيل موريا :
في النيل طينٌ ومِسْكٌ ثَنَاءُهُ خَيْرُ عِطْرِ
فَاعْجَبْ لَهُ حِينَ وَافَى مُمَسَّكًا وَهُوَ يَجْرِي
ومنها يذكر محاسنه ووفاءه :

محاسنُ بِحَرِّ النِّيلِ لَمْ تُحْصَ عِدَّةً
فَقَدْ طَابَ مَسْمُوعٌ لَهُنَّ وَمَنْظُورُ
تَخَلَّقَ بِالْوَصْفِ الْجَمِيلِ عَلَى الْمَدَى
وَزَادَ عَلَى حُسْنِ الْوَفَاءِ وَهُوَ مَكْسُورُ

ويضج الناس ويجارون بالشكاية ، إذا لم يصل ماء الفيضان
إلى حد الوفاء — وهو ستة عشر ذراعا — إذ أنهم في عامهم ،
يتوقعون الجذب فالقحط فالغلاء ، فالجوع والخوف ، فالأدواء
والأوباء والمنية .

وكان الشعراء لسانهم في إعلان هذه الشكاية ، وفي وصف
ما يعانونه من مضاعفات عدم الوفاء .

وفي عام ٦٩٣ هـ توقف النيل دون حد الوفاء ، فغلت
الأسعار وشقى الناس بمضاعفات الغلاء . .

وفي العام التالي وهو عام ١٦٩٤ هـ أوفى النيل وتكسر سده ،
وبلغت زيادته ست عشرة ذراعا وسبع عشرة إصبعا . ثم هبط
ولم يثبت . فقلت أسعار السلع ، واشتد الغلاء وأصبح فادحا ،
وبلغ ثمن الإردب من القمح ثمانية مثاقيل ونصفا من الذهب ،
وهو ما يساوي إذ ذاك مائة وسبعين درهما نقرة .

وقد نظم الشاعر شهاب الدين البزاعي في ذلك قصيدة
شاكية طويلة ، وصف فيها ما أصاب البلاد والناس من مضاعفات
الجدب والغلاء ، يقول منها .

ولما غاضَ بحرُ النيلِ فاضتْ

دموعٌ من محاجرهم سجامٌ

ومدَّ به من الأموات سيلٌ

لنقصِ عُبايه منه تمامٌ

ويصف الزارعين وأرباب الصنائع والبضائع بقوله — وإن
كان ضعيف النسيج :

وبات الزارعون وخلفوا كل م ما زرعوا وفاتهم الصرام

وأرباب الصنائع قارنتهم نحوس للكساد بها لزام

وأسواق البضائع حل فيها وقوف للعقود به قيام

ويعصف الفرسان والأغنياء بقوله :

رى الفرسان تحسبهم رفاة

من الأجداث قبل البعث قاموا

نفطر منهم الأكباد جوعا

كان الفطر عندهم صيام

وأما الأغنياء فقد أباحوا

حى الأموال وانخرم النظام

ويستمر الشاعر فى شكواه حتى يذكر فى الخاتمة أهل مصر

وصبرهم على جور الزمان ، ويدعو الله لهم أن يرضى عنهم ،

فيجربى لهم النيل ، لأنه هو « السلام » يقول :

عسى الرحمن أن يرضى عليهم

ويجربى نيلهم فهو السلام

وفى عام ٧٠٩ هـ توقف النيل أيضاً عن بلوغ حد الوفاء

فى ميعاده ، وارتفعت أصوات الشكاية .

وقد نظم الشاعر الأديب شهاب الدين محمود الحلبي أبياتاً

طليّة ، تمثل وجهة الشعب ، ووصف فيها بعض أحواله وما يعانيه .

وفي آياته خاطب النيل وساءله عن جريانه ووفائه . بأمر
ربه يجرى وبني ، أم بأمر من عند نفسه . فإذا كانت الأولى
فليجبر وليف . وإذا كانت الثانية فلا داعي للجري
ولا للوفاء . والله كفيل بأن يبسط بره في البلاد كما يبسطه ،
في بلاد غيرها ، لا يجرى النيل فيها .
وينطوى قول الشاعر على خفي من ألوان العتاب ومداعبة
اللائم .

يقول الشاعر :

يأيها النيل المبارك إن تكن

من عند ربك تجر فاجر بأمره
أو إن تكن من عند نفسك آتياً
فالله يبسط بره في بره
كم من بلادٍ لست تعرف أرضها

ملاً الإله بيوتها من بره الخ

وتتجلى في الآيات عقيدة إسلامية سليمة . وقد وضع
دستوها العالی أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، في كتابه الذي
قيل إنه كتبه إلى النيل ، في حالة مماثلة . وقد سبقت إشارتنا إليه .

شكوى من الشرَق والغلاء :

وفي عام ٨٥٤ هـ لم يف النيل ، فشرقت الأرض ، ووقع
الغلاء وصرخت البلاد شاكية باكية . وقد نظم في ذلك ،
الأديب الكبير الشاعر شمس الدين النواجي ، أكثر من مقطوعة
وقصيدة . ومن ذلك قصيدته التي مطلعها :

لربُّ الغلّا نشكو أذى القحطِ والغلّا

وما مسّنا فيه من الضرِّ والبَلَا

ونسأله في البأسِ واليأسِ والرجَا

رجاءً فقدَ مِنّا وعاجَلنا البِلي

غلاً أرخص الأرواحَ لَمَّا تَسَعَّرَتْ

بمَوْرِ ضرايمٍ في صميمِ الحشا غلى

وأخذ الشاعر يصف مظاهر الغلاء وصفاً باسكياً . ويذكر

مظاهر الجذب ذكرًا رائياً . فرحى الجذب دارت في كل بلدة .

ولم يعد هناك رجاء في بر ، ولا أمل في رى ، ولا ترقب لغيث ،

ولا وفاء للنيل ، ولا ذيل ستر بالهنا يسبل . وبلغ الجذب حدا

مزعجاً ، حتى شكّا الأغنياء من الفقر والفاقة . فكيف بالفقير

المعيل الباكي .

يقول الشاعر :

ودارت رحاء الجذبِ في كُلِّ بلدةٍ
وما تركتُ للخِضْبِ في مصرَ منزلاً
فلا برَّ بُرجي منه برٌّ يبرُّه
ولا يبحرَ ربي طابَ عذاباً مسللاً
ولا عينَ أرضٍ قد بكتُ فتنفجرتُ
علينا ولا دمعٌ من الغيثِ أهلاً
ولم يتخلَّقْ بالوفا نيلُ مصرِنا
ولا ذيلَ سترٍ بالهنا راحَ مُسبلاً
ومذْ غاضَ مقياسُ المني ضاقَ عيشنا
وأحلَّ ربعُ الأُنسِ والصبرُ ما حلاً
به الأغنيا يشكون قراً وفاقةً
فكيفَ بمن أُمسى مُعيلاً ومُعولاً

واتجه الشاعر إلى الله سبحانه وتعالى . وهو متجه كل
كل ظامئ ، ومنغى كل مملق ، ومغصب كل مجذب . يرجوه

حنانه وورقه . ويستسقيه غيثه وورذه . ويستمطره رحته وعونه،
للناس وللحيوان الذي أصبح مهزولا بادی السكلى . . .
يقول الشاعر :

حناناً حناناً يا مغيثَ الورى فقد
يئسنا وكلُّ الخلقِ أصبحَ مُبْتَلَى
فما مُمْلِقٌ إلا إلى بابك التجا
ولا معدمٌ إلا عليك توَكَّلَا
وسقيًا ورعيا للعواشى فقد بدت
كلها وكلَّ السيرُ فى طلبِ الحلى
وإن تاه قومٌ بالغلا وترَفَعُوا
علينا ومألوا للقطيعة والقلى
فوالله لا نرجو سواك ولا نرى
بيوم لهم فضلاً علينا ولا
إليك توسلنا بجاه نبينا
فما خابَ من أمسى به متوسلاً

تسبيحة النواجي أو تغريدته :

وفي العام التالي ، وهو عام ٨٥٥ هـ ، وفي النيل كعادته ، فامتلات القلوب بشرا والنفوس مسرة ، ورتلت المشاعر الشكر لله والحمد له على آلائه وأنعمه .

وقد بدا ذلك على لسان الأديب الشاعر شمس الدين النواجي نفسه ، صاحب الأبيات الشاكية التي تقدم ذكرها . فنظم قصيدة فريدة في مشاعرها ، مليئة بالعاطفة ، حياشة بالشكر والثناء ، مزدحمة بمختلف الأحاسيس ، وصف النيل فيها بما شاء صفاء نفسه ، من الأوصاف الكريمة . مما يحدونا إلى تسميتها بتسبيحة النواجي أو تغريدته أو ترنيمته . وهي خالصة لوجه النيل في أكثر من خمسين بيتا .

لقد بدأها فحمد الله سبحانه وتعالى ، وبين سبب ذلك ، وهو أن الله تآذن للنيل فوافى ووفى . لأن في وفائه الخير والبركة والبر ، وفيه الخصب والنعاء والرخص والرخاء . ومما يضاعف الحمد ويكثر الثناء على الله تعالى ، أن هذا الوفاء جاء عقب نقصان العام المنصرم — عام ٨٥٤ هـ — الذي عانت البلاد من جرائه ما عانت . فأذهب الله عنها هذا العناء ، وبلى غلة قلبها بهذا الوفاء .

يقول الشاعر :

الحمد لله وَافَى نِيلُنَا وَوَفَى
وَبَلَّ غُلَّةَ قَلْبٍ كَانَ قَدْ نَشَفَا

وها هو ذا ماء الحياة يعود منهمراً إلى الزرع ، جارياً في
مجاريه ، فياضاً بأياديهِ ، وهو بها كلف وإليها دنف ، فيحيي
موات الزرع على جانبيها ، ويعيد الحياة على ضفتيها ، ويجتث
الحل ويقطع الجذب ، ويزيل السقام وينشر البرء والشفاء .

يقول الشاعر :

وعادَ ماء حَيَاةِ الزَّرْعِ مُنْهَمِرًا
إلى مجاريه فياضًا بها كَلِفًا
نَعَمْ جَرَى الْمَاءُ فِي عُودِ الْحَيَاةِ وَدَبَّ
الْبَرءُ فِي السَّقَمِ مَمْزُوجًا بِكُلِّ شِفَا

هذا النهر الكريم ، الطيب عنصره ، الرضى خبره ومخبره ،
الذي يذريه ومرتشفه ، إنما يهيمى ينبوع كوثره من الجنان .
ومن الجنان تحدّر مصدره ، وجوهرها يحدث عنه جوهره .

يقول الشاعر :

مِنَ الْجِنَانِ هَمَّى يَنْبُوعُ كَوْنِهِ
يَاطِيبَ عُنْصُرِهِ رِيًّا وَمُرْتَشَفًا
جَرَى عَلَى أَجْمَلِ الْعَادَاتِ مُنْبَسِطًا
وَلَا تَوَقَّفَ يَوْمًا لَا وَلَا وَقَفًا

وفي البيت الثاني يقظة عاطفية فذة نبيلة . لقد سجل الشاعر
أن النيل جرى على أجمل عاداته . وأنه لم يتوقف . والعبارة
في قوله : « ولا توقف يوما » تحتل العموم ، وهو الاحتمال
الذي نفسرها به .

والمعنى أن النيل لم يتوقف قط ، لا في هذا العام ولا في أى
عام آخر . لقد تناسى الشاعر — أو أنسى نفسه — في نشوة
الوفاء ، أن النيل لم يَف في العام الماضي ، وأنه قال في ذلك شعراً
يشكو فيه عدم وفائه ، ويضج من مضاعفات ذلك .

وهكذا غفرت المحبة الذنب للمحبوب ، ونسيت في ساعة
الوفاء ما كان له من ذنوب . .

ويمثل النيل في خيال الشاعر ، ملكا جاء ووافى لينظر
في أمر رعيته ، وليكشف عنها الضر ويدبر لها الخير فيقول :

كأنه ملك وافي لينظر في
أمر الرعية إن ضرا رأى كشفنا

وقد استعد لمقاتلة الجذب ودفع الضر ورفع الغلاء . فلبس
جوشنا مزردا ، حاكته له كف الصبا ، وساق من خلفه جيشا
عظيما لجبا من أمواجه ، زحف به على جيش الغلاء . وطاف به
البلاد وجاب الأرض ، وهو يقتنى أثر الغلاء في كل مكان ،
لكي يمحوه ، ولكي يصلح ما آتلفه . وكأنما يتحرى المواقع
التي تحتاج إلى سقى فيسقيها ، والمعاهد التي تشرئب إلى الري فيرويها .
يقول الشاعر :

حَاكَتْ لِحْجُوشِنِهِ كَفُ الصَّبَا زَرْدًا
بجيشٍ مَوْجٍ عَلَى جَيْشِ الْفَلَا زَحَفًا

طَافَ الْبِلَادَ وَجَابَ الْأَرْضَ مُقْتَنِيًا
آثَارَهُ يَتَلَاَفِي مِنْهُ مَا تَلَفَا

كَأَنَّمَا يَتَحَرَّى فِي تَعْهِدِهِ
مَوَاقِعَ السَّقْيِ أَتَى سَارَ أَوْ عَكْفَا

والأدلة على تحريره مواقع السقي ، ما تراه بصعيد مصر ،
— فكم به من منية يممها فيه — وما تراه به من فلك جوارعليه في
أسنى مطالعها ، وما تراه من بحر يوسف الذى أبدى أحسن منظره
في « ألف يوم » ، وما تراه بجلوان لما أهدى إليها حلاوته ،
فجذبت إليها أهل الشوق والمدنفين إلى اللقاء .
يقول الشاعر .

كَمْ مُنِيَّةٍ مِنْ صَعِيدِ الْأَرْضِ يَمَّمُهَا
بِالْمَسْحِ مِنْ وَجْهِهَا الْقَبْلِيُّ مَا انْكَشَفَا
بَاهَى بِهَا الْفَلَكَ فِي أَسْنَى مَطَالِعِهَا
جَوَارِيًّا ذَاتَ أَلْوَاحٍ تَلَتْ صُحُفَا
وَبَحْرُ يُوسُفَ أَبَدَى حَسَنَ مَنَظَرِهِ
بِالْصَّبِّ فِي أَلْفِ يَوْمٍ قَدْ صَفَا وَصَفَا
وَمِنْذُ أَهْدَى بِجُلُوانٍ حِلَاوَتَهُ

راقت ببال مشوقٍ للقاء دَنِفَا
واستمر الشاعر واستمرت عاطفته وخياله ، في إبراز هذه
الحاسن والصفات ، التى اتسم بها هذا النيل الوافى الجرى ،

الذى ماشاب مفرقه من هرم ، ولا رحف قلبه من هول . وجاء
ركضا وسيم الوجه رثيفا شافيا منحدرآ من أعلى الصعيد ، يقذف
إلى الورى أرزاقها ، حتى ضرب الفسطاط ، وانعطف حول
المقياس ، فدقت البشائر بقدمه ، وأشير إليه بالأصابع ، بل
بفيض من فضل أياديه ..

يقول الشاعر :

ماشاب مفرقه الميمون من هَرَمٍ
ولا أبو الهول منه قلبه رجفاً
بل جاء ركضاً وسيم الوجه يسبح في
تيّاره وعلى التكرور كم رأفاً
قد زيد في حرّته فانساب منطلقاً
فدأّاه وسقى ماء الحيا وشفى
وافى بمفرده من قوص منحدرآ
في كَلّة وبأرزاق الورى قدفاً
مُخلّقا لعمود الصبح قد ضرب الـ
فسطاط حين رأى المقياس وانعطفأ

دَقَّتْ بِسَائِرُهُ فِي مِصْرٍ وَانْتَشَرَتْ

رَايَاتُهُ بِقُلُوعِ آذَنْتِ بَوَفَا
وَافِي يُشَارُ إِلَيْهِ بِالأَصَابِعِ بَلْ
بِفَيْضِ فَضْلِ أَيَادِ عَهْدِهَا سَلَفًا
أَرْخَى عَلَى النَّاسِ سِتْرَ الْعَدْلِ فَانْتَشَرُوا

فِي رَوْضَةٍ مِنْ شَدَاها أَصْبَحَتْ أَنْفًا

وامتدت مياه النيل ، ودارت حول سوق الأشجار ، فطوقتها
خلاخيل ، وغذتها فبدا عليها من طلعتها تحف من القلائد .
والنبت كان في وحشة إليه . والأرض تحلت بحل من أياديه ،
ولبست شنفًا من قرطه . وأصبحت الأرض بسعة مياهه فيها ،
وانتشارها على سطحها ، تحكي السماء . بينما أصبحت السماء نفسها
تتحكيه — تحكي ماءه بانتشاره فوق سطح الأرض — بما فيها
من أنجم وبروج . فكلأها جرت فيه الأفلاك . وكأنما النيل
مرآة مصقولة ، حليت بالصقل ، وصفت كما صفا . .
يقول الشاعر :

صَيَغَتْ خَلَاخِيلُ لِلأَشْجَارِ مِنْهُ وَمِنْ
قَلَائِدِ الطَّلَعِ حَلَّى جِيدَهَا تُحَفًا

واستوحشَ النباتُ حتى الأرضُ في حُلَيْ
 تُجَلَى ومن قَرطِهِ قد ألبستُ شَفَا
 تحكى السماءُ وتحكيه حُلَى وَعُلَى
 وأنجماً وبرُوجاً كم حَوَتْ شَرَفَا
 كِلَاهَا جَرَتْ الأفلاكُ فيه وقد
 حَفَّتْ بِحَافَتِهِ الأملاكُ فَاثْتَلَفَا
 كأنما هو مرآةٌ لها جُلِيَتْ
 بالصَّقلِ أو هي مرآةٌ صَفَتْ وَصَفَا

واستمر الشاعر في تغريدته ، يحدث عن النيل وفضله ، وعن
 مائه وكرمه ، وعن جماله ومشاهده ، في آيات على نمط مما
 أوردناه من هذه القصيدة الفريدة . حتى رآه قد رق طبعاً ، وإنه
 ليؤثر في قلب الحجر .

قد رَقَّ طَبْعاً فما أُخْلَى زَوَائِدُهُ
 في الذوقِ لو مرَّ في قلب الصفا لَطْفَا
 ولفظ « لطفا » يحتمل أن يكون من اللطف أو الطفو .
 وعلى أى التقديرين فعناه جميل .

ولا يقيس الشاعر به ابن ماء السماء ولا ابن زائدة ولا أبادلف ،
أولئك الكرام الذين عرفوا بالجود واشتهروا بالسباح ،
هم في رأيه قطرة منه .
يقول الشاعر

فما ابنُ ماءِ سماءٍ وابنُ زائدةٍ
وقاتلُ المحلِّ جوداً أو أبو دُلَفَا
إلاَّ كقطرةٍ ماءٍ منه قد قطرتْ

بل كلُّهم من نَدَى راحتهِ اغترَفَا
وتأسر الشاعر عقيدته الإسلامية مرة أخرى ، فيرى أنه
لو لم يكن للنيل من مفخرة إلا أنه جرى ليروى آثار النبي ،
لكفاه بذلك نفراً . وهكذا تتدخل العقيدة فتوجه الشاعر نحو
ما يريده من التورية اللطيفة المداعبة في لفظ « آثار النبي » .
فإن الشاعر — على ما نرى — يقصد به ، المكان المعروف
جهة الفسطاط ..

يقول الشاعر :

لو لم يكن في سُرَاهُ مِنْ أَقَاصِي أَسَفِ
سوانٍ وقوصٍ إلى أن عاد وانصرفا

إِلَّا لِيُرَى آثَارَ النَّبِيِّ وَمَنْ
رَوَى الْوَرَى بِغَوَادِي كَفَّهُ لَكْفَى
واستمر الشاعر في ملاسبات لفظه هذا ، فقال مرفها عن
عاطفته الدينية ، ومشبعاً لها :

مُحَمَّدٌ صَاحِبِ الْخَوْضِ الرَّوِيِّ إِذَا
مَا جَاءَهُ الْوَارِدُ الظَّمَانُ مُلْتَهَفًا
مَنْ نَالَ مِنْهُ شَرَابًا فِي الْقِيَامَةِ لَمْ
يُظْمَأْ وَصَادَفَ رِيًّا فِيهِ كُلُّ شِفَا
مِنْ نِيلٍ مَنِهْلِهِ كَمْ رَاحَ مُغْتَرَفًا

ظَامٍ وَبِالْفَضْلِ مِنْهُ جَاءَ مُغْتَرِفًا
وتلمس ظرف الشاعر ولطف حسه ودقة تخييره لألفاظه في
هذه الأبيات الثلاثة . فقد تخيرها — وهو يتحدث عن رسول
الله صلى عليه وسلم — من وادي «المياه» لمناسبة حديثه عن النيل .
وسار الشاعر في روحانيته هذه ، حتى اتجه بجمع نفسه إلى
الله سبحانه وتعالى « منزل الغيث » ، أن يدفع عن مصر الغلاء
وينشر الرخاء ، ويدرك بها أمته الضعيفة ، بمغفرته وحنانه

ورحمته ، خاتماً تسبيحته الطلية الرقيقة الخالصة ، بالصلاة على
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يقول الشاعر :

يَا مُنْزِلَ الْغَيْثِ فَضْلاً بَعْدَ مَا قَنِطُوا

وَنَاشَرَ الرَّحْمَةَ الْعَظْمَى بِحُسْنِ وَفَا

ارْفَعْ بِحَقِّكَ عَنْ مَصْرَ الْغَلَاءِ وَقِنَا

صَعِيدَ نَارٍ بِهَا رُبْعُ الرِّخَاءِ عَفَا

لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ دَارَكُنَا بِمَغْفَرَةٍ

وَجُدْ حَنَانِيكَ وَارْحَمْ أُمَّةً ضَعُفَا

وَصَلِّ أَزْكَى صَلَاةٍ وَالسَّلَامُ عَلَى

نَبِيِّكَ الْمُصْطَفَى الرَّاقِي الذَّرَا شَرَفَا

مَا انْهَلَتْ فِي الْجَدْبِ غَيْثٌ قَدْ طَغَى فَجَنَى

أَيَّانَعَ الزَّهْرُ كَفَ الْخُصْبِ وَاقْتَطَفَا

هكذا اختتم الشاعر تسبيحته بعلامات النيل ، مثل : انهل

والغيث وجنى ، وأيانع الزهر ، والخصب ، والاقطف . وهي

توحي إليك بمقدار ما خالط نفسه من النيل ومشاهده .

وبعد ، فلعل هذه القصيدة تقنع الكثيرين ممن يتجنون على شعراء هذا العصر ، ويهتمونهم بانصراف نفوسهم عما ينبغي لها من عواطف ومشاعر نحو نيل بلادهم المبارك ، وبضيق تعبيرهم عنها إذا عرضت لهم ، وبتلهيهم دون وصفه ، بالصناعة اللفظية .
وقد بلغ حب النيل من نفس الشاعر الكبير الشهاب المنصوري ، أنه اتجه في وصفه للنيل اتجاه العاشق الغزل ، الذي تشبب في معشوقه .
انظر إليه وقد ألغز في « النيل » فقال في أبياته :

حلَّوْ اللّميّ أحببتُ من إدباره
مثل الذي أحببتُ من إقباله
حَسَنُ الشّائلِ لأيمِلُ وصالهُ
أبدأُ ومَن لمُحبِّهِ بوِصالهِ
طلقُ المحيّا إن بدا مُتَبَسِّمًا
قرّتْ عيونُ نِسائيهِ ورجالهِ
في كلّ وقتٍ يُشهى لا سيّا
في حال بُكرتِهِ وفي أصالهِ

قطعُ الطريقِ أَقلُّ ما يُعزَى له
والناسُ تشكرُه على أفعاله
ومنَ العجيبِ العجزُ عن إمساكه

معَ لِينِ جانبِهِ وقربِ منالِهِ
وكثيراً ما يمزج الشعراء حين تغنيهم بمصر وحب مصر ،
بينها وبين النيل ، فيمتزج الحبان ويختلط العشقان ، وتتصل
بذلك عجائب مصر بعجائب النيل في تصور الشعراء .
ويقول صلاح الدين الصفدى :

رَأَيْتُ فِي أَرْضِ مِصْرٍ مُذْ حَلَلْتُ بِهَا
عجائباً ما رآها الناسُ في جيلٍ
تَسْوَدُّ فِي عَيْنِي الدُّنْيَا فَلَمْ أَرَهَا

تَبْيِضُ إِلَّا إِذَا مَا كُنْتُ فِي النَّيْلِ
وهكذا يرى الشاعر أن الدنيا تسود في عينيه ، في كل ناحية
من نواحيها يرحل إليها ، ولا تبيض إلا إذا ما كان في أرض
النيل ، مصر الرحبة الكريمة السمحة .

واعتقد أن الشاعر يرمز بالسواد والبياض ، إلى الجذب

والخصب ، أوضيق العيش وسعته ، أوعبوسة اللقاء والفرحة به .
 وزين الدين بن الوردى ، يرى أن مصر هى الدنيا ، وأن
 ساكنيها هم الناس ، وأن مصر مقدمة يشرحها نهر النيل ، ويوضح
 مزاياها وما أجمل فيها . يقول مفضلاً مصر والنيل على بغداد ودجلة :
 ديارُ مِصرَ هِيَ الدُّنْيَا وساكنُها

هُمُ الْأَنَامُ فَقَابِلُهَا بِتَقْبِيلِ
 يَأْمَنُ يُبَاهِي بِبَغْدَادٍ وَدَجَلَتِهَا

مصرٌ مقدِّمةٌ والشرحُ للنيلِ
 ويتشوق علماء الدين الوداعى إلى مصر وسكانها وعهدها
 الخالى . ويستروى الأحاديث عن نيلها رياء لشوقه ، وسقيا
 لوجده فيقول :

رَوْ بِمِصرَ وَبُسْكَانِهَا شَوْقِي وَجَدْتُ عَهْدِي الْخَالِي
 وَصَفَ لِي الْقُرْطُ وَشَفَّ بِه سَمْعِي وَمَا الْعَاطِلُ كَالْخَالِي
 وَارَوْ لَنَا يَا سَعْدُ عَنْ نَيْلِهَا حَدِيثَ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ
 وانظر إلى اختياره فى البيت الأخير ، وهو يتحدث عن
 النيل ، لفظى « صفوان » و « عسال » .

* * *

وشاعر مصر الكبير — حينذاك — جمال الدين بن نباتة ،
كان قد فارقها إلى ربوع الشام ، فاتهب الشوق نفسه ، وصار
يتغنى بها وينيلها ، الذي يخلصب الثرى ، ويُغنى الورى ، ويقتل المحل .
يقول الشاعر :

وَلَا نِيَّ لِمَشْتَاقٍ إِلَى ظِلِّ رَوْضَةٍ

على النيلِ أَرْوَى العيشَ منها عن النَّضْرِ

لَئِنْ حَثَّنِي بَابُ الْبَرِيدِ إِلَى مِصْرٍ

لَقَدْ حَثَّنِي بَابُ الزِّيَادَةِ فِي النَّذْرِ

إِلَى مِصْرٍ يَحُلُو نَيْلُهَا مُخْصِبُ الثَّرَى

فَيُغْنِي الْوَرَى فِي الْحَالَتَيْنِ عَنِ الْقَطْرِ

ويصرح تقي الدين المقرئ في آيات وصف فيها مدينة

دمياط ، وما حولها من مياه جارية وزروع زاهية ، وصدى

مناظرها في نفسه ومشاعره ، بأن النيل « المقدس » ، وبأن

النزهة في شاطئه تعيد إلى الشيب شبابه وعيشه الرغد . يقول :

وَفِي شَاطِئِ النَّيْلِ الْمَقْدَسِ نَزْهَةٌ

تَعِيدُ شَبَابَ الشَّيْبِ فِي عَيْشِهِ الرِّغْدِ

وَتُنْشِي رِيحًا تَطْرُدُ الهمَّ وَالْأَسَى

وَتُنْشِي لِيَالِي الْوَصْلِ مِنْ طَيْبِهَا عِنْدِي

وكان الشاعر قد زار دمياط ، ويبدو أن ذلك كان في إبان
فيضان النيل . فلم يفته هذا المنظر الرائع المعجب ، وهو منظر
التقاء النيل الطاغى وتياره المتدفق ، بالبحر اللجج المصاحب ،
فسجله في أبياته ، وندر من سجله ووصفه من الشعراء .
يقول الشاعر :

كَأَنَّ التَّقاءَ النيلِ بِالْبَحْرِ إِذْ غَدَا

مليكان سارا في الجحافل من جُنْدٍ

وقد نزلًا للحربِ واحتدمَ اللُّقَا

ولا طعنَ إِلَّا بِالْمُثَقَّمَةِ المُلْدِ

فَظَلَّا كَمَا بَاتَا وما بَرِحَا كَمَا

هما من جليل الخطبِ في أعظم الجُهدِ

وتفنى الشعراء بجزر النيل وبخاصة جزيرة الروضة ، إذ

كانت مفترجا نضرا من مفترجات مصر ، وتقوم في وسط النيل

بين الفسطاط والجزيرة ، وتدور من حولها سفن المرتاضين

والعشاق ، يقصدون منازلها أو يطوفون حول المقياس .

وقيل إن الشاعر المتصوف سيدى محمد بن وفا ، كان يسكن
فى جزيرة الروضة ويألفها كثيراً . فأضفى عليها من روحانياته
وصوفيته ، جملة من المعانى ، وتصورها بإدراكه الخاص . وضمن
ذلك أبياتاً من شعره ، ذكر فيها جملة من مناظرها ، ووصف
الماء من حولها وزوارقه .

وقد عدها نعمة من نعم الله التى يشكر عليها سبحانه
وتعالى ، قال :

رَأَيْتُ رِياضَ الْقُدْسِ فِي رَوْضَةِ الرِّضَا

على نيلٍ مصرٍ بينَ تلكِ المناظِرِ
مناظرُها للنَّاظرينَ مشارِقُ

وفىها وجوه كالبدورِ البوادرِ

ويقول :

وتحكى طيوراً عالياتٍ رؤوسها

على النيلِ فيها ساجحاتُ الشخائرِ
ويُشبهُ سيبُ الماءِ فيها صوارماً

بأيدي الهناسلتْ لسلبِ النواظِرِ

عليها جلالُ اللهِ جلَّ جلالُهُ
وفيه سريرُ السرِّ بينَ السرائرِ
ويزهو بدر الدين البشتكي بمصر بسبب وجود النيل فيها ،
ويترنم بهما وبالروضة والمقياس . فيقول :
انظرُ إلى مقياسِ مصرَ وغنِّ لي
من روضةِ المعشوقِ في عشاقِ
وانخرُ بمصرَ على البلادِ فنيلاً
يقضي على الأوصافِ باستغراقِ
وتخلخلتْ منهُ الغصونُ ومدعلاً
دارتْ دوائرُهُ على الأسواقِ
للهِ في أفقِ الجزيرةِ ملعبُ
كانتْ نجومُ السعدِ فيه رفاقي
حيث الصَّبا تُصبى الليبَ لأنها
تُملى عليه مصارعُ العشاقِ
تتعانقُ الأغصانُ معُ إصغائها
لسماعِ نوحِ الورقِ في الأوراقِ

فَتَرَى بِأُذُنِ الْعَارِفِينَ تَجَاهِلًا

أَمَقَامُ وَصَلَ أَمَ مَقَامُ فِرَاقِ
وَيَتَجُولُ ابْنُ أَبِي حَبْلَةٍ الْمَرْبِي فِي جَزِيرَةِ الرُّوضَةِ ، فَيَرَى
سَمَاءَهَا غَائِمَةً ، وَيَرَى غَيْمَهَا نَدًّا ، وَنَدَاهَا يَكْسُو خُمَائِلَ السَّنَدَسِ ،
وَالسَّفْنُ مِنْ حَوْلِهَا تَقْبِلُ وَهِيَ كَالْعِرَائِسِ ، وَالْجَوَارِي الْكَنَسُ .
يَقُولُ الشَّاعِرُ :

أَوْ مَا تَرَى غَيْمَ السَّمَاءِ كَأَنَّهُ

نَدٌّ يُلُوحُ لَنَا بِأَفْقِ الْمَجْلِسِ
وَالرُّوضَةُ الْفِيحَاءُ بَاكِرَهَا النَّدَى

وَكَسَا خُمَائِلَهَا رِيَاضَ السَّنَدَسِ
وَالسَّفْنُ تَبْدُو كَالْعِرَائِسِ حَوْلَهَا

قَدْ أَقْبَلْتُ مِثْلَ الْجَوَارِي الْكَنَسِ

وَيُؤَلِّفُ ابْنُ أَبِي حَبْلَةٍ ، مَهْرَجَانَا رَاقِصًا فِي النَّيْلِ ، يَشْتَرِكُ
فِي إِحْيَائِهِ أَلْفَ رَوْضَةٍ وَمَقْيَاسِهِ ، وَيَعْكَسُ خَوَاطِرَهُ وَمَشَاعِرَهُ
عَلَى الْمَهْرَجَانِ ، فَيَشِيعُ فِيهِ الْفَرَحُ وَالْبَهْجَةُ . فَهَذِهِ وَرَقَاءُ تَغْنَى عَلَى
عِيدَانِهَا وَتَشْدُو بِالْحَنَانِ . وَهَذَا الطَّلُّ كَالْدُرِّ قَدْ تَنَاطَرَ عَقْدُهُ ،

والثَّامُ من حباته تيجان رصعت رءوس الزهر ، بينما برز البحر
— النيل — في برده ، وقد رقت حواشيه وصقلته الريح ، فكأنما
تهيشه وتجلوه عرسا ...
يقول الشاعر :

وكاننا في رَوْضَةٍ المقياسِ والـ
وَرَقَاهُ قَدْ غَنَّتْ عَلَى العِيدَانِ
وَشَدَّتْ بِلَحْنِ مُعَرَّبٍ فاعجب لها
أرأيتَ أعجمَ مُعَرَّبِ الأَلْحَانِ
فالطَّلُ دُرٌّ قَدْ تَنَاطَرَ عِقْدُهُ
والزَّهْرُ مِنْهُ مُرَصَّعُ التَّيجَانِ
والبَحْرُ قَدْ رَقَّتْ حَوَاشِي بُرْدِهِ

والريحُ تصقله بغيرِ توانٍ
ويطوف الشاعر الأديب عز الدين الموصلي بالروضة ،
طواف العاشق ، فتبهره مجالها ، وتأسره مرائبها ، فيرى في
صفحاتها آيات الجمال . لقد نقشَتْ أرضها إبر الحيا ، وطرزتها .
ودارت أشجار السرو من حولها كالسوار أو الخلدال . بينما سور
الأشجار سلسل دار حول سوقها مطلقا كأنه الأسير . وغياضها

مدبجة بادية الألوان . وأغصانها الند ، وأوراقها السندس .
 وأزهارها الياقوت والبلور ، أو الدراهم بين الدنانير . وظلها
 ثوب يجمعه النسيم تارة ، ويفرقه تارة . وهى إنما تعيش بهذه
 المحاسن الفاتنة فى حى النهر الذى يزيد ويفى ، والذى يؤذن
 بالخصب ، ويجتث الجذب ، كأنه الصارم المشهور ، وفى سبيل
 الله ما يفعل ...

يقول الموصلى :

ورَوْضَةٌ نَقَشَتْهَا لِلْحَيَا إِبْرَهُ
 فأصبحت بين تطريزٍ وتزهيرٍ
 مثلُ السَّوَارِ لها سَرُّوْ أَحَاطَ بها
 مِنْ سَلْسَلٍ هِىَ مِنْهُ ذَاتُ تَسْوِيرِ
 أو كالخِلاخِيلِ للأُدْوَا حِ دارِ على
 سَوِيٍّ لها مَطْلَقًا فى زِيٍّ مَأْسُورِ
 تحتِ الرِّياضِ غِيَاضٌ دُبَّجَتْ فَبَدَّتْ
 ألوانُها ذَاتَ تَشْهِيرٍ وَتَشْدِيرِ

أَغصَانُهَا النَّدَى وَالْأَوْرَاقُ سِنْدُسُهُ
وَالزَّهْرُ عَرَقٌ يَاقُوتًا بِلُورِ

وَالزَّهْرُ بَيْنَ شُعَاعِ الشَّمْسِ تَحْسِبُهُ
دَرَاهِمًا تُثَرَّتْ بَيْنَ الدَّنَانِيرِ

وَالظِّلُّ ثَوْبٌ إِذَا مَرَّ النَّسِيمُ بِهِ
فَالرَّوْضُ مَا بَيْنَ مَهْتُوكٍ وَمَسْتَوِرِ

وَنَهْرُهَا زَائِدٌ بِالْخَصْبِ يُؤْذِنُنَا
كَصَارِمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَشْهُورِ

وَيَجْمَعُ نَاصِرُ الدِّينِ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَلَارٍ ، بَيْنَ مِصْرَ
وَالرَّوْضَةِ وَالنَّيْلِ ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْأَحْبَاءِ الثَّلَاثَةِ . أَوْ بَيْنَ الْمَجْبُورِينَ
الثَّلَاثَةِ . وَيُرَى أَنَّ مِصْرَ هِيَ الْجَنَّةُ الْعُلْيَا ، وَأَنَّ الرَّوْضَةَ هِيَ
الْفَرْدُوسُ . وَأَنَّ النَّيْلَ هُوَ الْكَوْثَرُ . يَقُولُ .

لَعَمْرُكَ مَا مِصْرُ بِمِصْرٍ وَإِنَّمَا
هِيَ الْجَنَّةُ الْعُلْيَا لِمَنْ يَتَفَكَّرُ

فَأَوْلَادُهَا الْوِلْدَانُ مِنْ نَسْلِ آدَمَ
وَرَوْضُهَا الْفَرْدُوسُ وَالنَّيْلُ الْكَوْثَرُ

وَيَتَشَوَّقُ شَهَابُ الدِّينِ بْنُ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيُّ إِلَى مِصْرَ ، وَهُوَ

في طريقه إلى الحج ، فيذكرها ذكر العاشق الواله ، ويدفعه
الزهو بها إلى وصف مفاتها التي صارت موضعاً ومصدراً
لحسادها ، ويذكر أنه إذ فاخرها قادح أو عائب حاسد ،
انبرى صارم نيلها وكسر كل فخار ...

يقول ابن حجر عن مصر :

تهبُ نسيمُ الشمالِ بأرضها

فينشقُّ منها الأنفُ جُونةَ عطارِ
محسدةٌ لا قدحَ فيها لعائبِ

على أن زندَ الفضلِ من أهلها وارى
إذا فاخروها قامَ صارمُ نيلها

بمقياسِ صدقِ كسراً كلِّ فخارِ

مراتعُ لذاتي وملهي شيبتي

ومبدأ أوطاني وغاية أوطاري

ويستشفع جمال الدين بن نباتة بدموع شوقه ، ليعود إلى
مصر لكي يروى ظمأه من النيل فيقول :

وهل إلى أرضِ مصرِ زورةٌ لشَجَرِ

يسائل من دموعِ الشوق ملحاحِ

وهل أبا كرُ بحر النيل مُنْشَرِحاً
فأشربَ الحلوَ من أكوابِ مَلَّاحٍ

وشهد الشاعر المبدع نحر الدين بن مكائس ، سرحة جميلة
وارقة الظلال ، قائمة على شاطئ النيل ، مائلة نحوه ، فشهد
فيهما عاشقين اجتمع شملها ، واكتمل محفلها ، وطالت بينهما
المناجاة والمسامرة ، والمواصلة والمجاورة ، فهزته قصتهما ،
ونفضت نفسه إلى تسجيلها في قصيدته البارعة « سرحة النيل »
وبدأها بقوله :

يا سرحة الشاطئ المنسابِ كثرُهُ
على اليواقيتِ في أشكالِ حصباءِ
حَلَّتْ عليكِ عزَّ إليها السحابُ إذا
نَوَّه الثريا استَهَكَّتْ ذاتَ أنواءِ

وإن تبسَّم فيكِ النورُ من جدلِ
سقاكِ من كُلِّ غيمٍ كُلِّ بَكاٍ
وانساب الشاعر بمشاعره ، في وصف السرحة الجميلة ، التي

سرحت بخياله في آفاق من التصورات البديعة ، التي غذاها النيل
بأفضاله وآياده ، وقومها بأوصافه ومجاليه ، وأيدها بالرائع
من محاسنه ، والجامع من مفاته ، فامتزجت في خواطر الشاعر
حسياته ومعنوياته .

ورأى الشاعر السرحة ، وقد مالت على النهر ، فحسبها تميل
لتصغى إلى مناجاة خريره . وشهد النيل مرآة تدهش بحسنها
ولآلائها ؛ وقد راق شاطئه غب القطر ؛ فأزرى بنهر الأبله .
وحركته يد النسيم فصقلت صفحته فبدأ كسيف مجلو . .
يقول ابن مكناس :

مَالَتْ عَلَى النَهْرِ إِذْ جَاشَ الْخَرِيرُ بِهِ
كَأَنَّهَا أُذُنٌ مَالَتْ لِإِصْغَاءِ
كَأَنَّمَا النَهْرُ مِرْآةٌ وَقَدْ عَكَفَتْ
عَلَيْهِ تَدْهِيشُ فِي حُسْنٍ وَلَآئِ
ذُو شَاطِئٍ رَاقَ غِيبُ الْقَطْرِ فَهُوَ عَلَى
نَهْرِ الْأُبْلَةِ يُزْرِي أَيَّ إِزْرَاءِ
كَأَنَّهُ عِنْدَ تَحْرِيكِ النِّسِيمِ لَهُ
فِرْنْدٌ سَيْفٍ نَضَّتْهُ كَفُّ جَلَاءِ

وعرض الشاعر لكثير من ملابسات السرحة والنيل . فذكر
خطاب ظلها وأحباب ناديمها . وقد برئت قلوبهم في رحابها من
الحقد ، وخلصت من الشحنة ، فلم يعد لهم رابطة إلا الود ،
ولا جامع إلا اللهو ، الذي لا مكرفيه ، والمجون الذي لاندم بعده .
يقول الشاعر :

باكرتها في سَراةٍ من أصحابها
لا ينطوون على حقدٍ وشحنةٍ
يداعبون بمعنى شِعْرِهم فأروا
وَدَّ الأَجبة في ألفاظِ أعداءِ
من كُلِّ شيخٍ مُجونٍ في شَبابٍ فتى
يقرى المجونَ بقلبٍ غيرِ لساءِ
يسعى إليها على جرداءٍ جاريةٍ

من آلهة كهلال الأمن حذاء
وهكذا انتقل الشاعر بيته الأخير ، انتقالا لطيفاً إلى وصف
السفينة ، يركبها الأحباب المرتاضون في أمانة النهر وحراسة تياره
وهي في مسيرها فوق سطحه مثل « هلال الأمن » لا « هلال

الشك » . لذلك استسلم في أحضانها اللاهون للمجون استسلام
المؤمن لقدره ، في وداعة ورضا واطمئنان .

وهي « نوحية الصنع » و « نوحية الأحكام » لقدمها ودقتها
وبركتها ومراتها على إيصال راكبيها إلى مكان الأمان والنجاة ،
دون أن يعتريها إعياء .

وقد بدت في سوادها على سطح « الماء المصنل » كشامة
على شفة لعساء ، كالشهد . والشامة حلوة جميلة ، وأحلى منها وأجمل ،
الشفة للعساء ، التي هي كالشهد حلوة وقبولا .
يقول الشاعر :

نوحية الصنع والإحكام مُنشأة

تسير ما سئرت من غير إعياء

سوداء تحكى على الماء المصنل شا

مة على شفة كالشهد لعساء .. الخ

* * *

وبعد ، فيضيّق نطاق هذه العجالة ، إذا ذهبنا نسوق النصوص
الدالة على مدى اهتمام شعراء مصر ، في هذه الحقبة ، بالنيل
وما يتصل به . وعلى مدى جهم وتقديسهم له ، والتفات خواطرهم
إليه ، وامتزاج نفوسهم به . فحسبنا ما سجلناه .

* * *

ونستطيع بالرجوع إلى ماسجلناه من النصوص ، أن نجمل ما حوته من أوصاف النيل ونعوته وتشبيهاته ، وأوصاف ما يتصل به ، فيما يأتي :

١ — أوصاف تدل على التقديس والتقدير والمحبة والإعجاب :

وصفوه بالمقدس والبارك والسعيد والمقبل . وأنه الكوثر الذى يهيمى ينبوعه من الجنان . وأنه السلام .

وأنه محبوب حيلت القلوب على حبه . ومحبوب فى إقباله وإدباره . ودعوا ألا يُبْعَد عن شاطئه . وأن وصاله لا يمل لأنه محبوب . وأنه يشتهى فى كل وقت .

وأنه لين الجانب وقريب المنال . وطلق الحيا تقرر الميون بابتسامته : وأنه حلو اللمى . وأنه يفي بوعده وأنه وسيم الوجه وأن نشره العطر أطيب من روائح الشباب . وأن رياحه الطيبة تطرد الأسى وتنسى ليالى الوصل .

وأنه حسن الوفاء يمل غلة قلب الصادى . وأن عدم وفائه يُجرى الدموع من المحاجر . وأن وفاءه تدق له البشائر فى مصر . وأن وفاءه يفرق الهم ويقسم الأحزان . وأن وفاءه ستر العدل على الناس .

وأنه أكرم من ابن ماء السماء وابن زائدة وأبى دلف

العجلى — وهم من مشاهير كرماء العرب — وأنهم إنما اغترفوا
من ندى راحاته . وأنه يجرى بأرزاق العباد .

وأن محاسنه لا تحصى ومنها المسموع والمنظور ، وأن شيمه
ظاهرة الحسن طاهرة الأوصاف ، وأنه ذو عجائب كثيرة لا تخفى
على ذوى الفضل .

أن محاسنه لا تباريه فيها جداول الشام ولا أنهار العراق ،
وأنه يزرى بنهر الأبله .

وأنه حصن لمصر وسور عليها ، وأن عيش البرية يصفو
بكدر مائه .

وأنه عاشق الروضة . وأنه عروس لها وهى عرس له .

٢ — أوصاف توضح عمله ومحاسنه بتصوير شاعرى مشخص .

قالوا إنه : خضب الأرض بخضابه ، وشيب فودها بأزهاره ،
وإنه ذو كيميائية تحيل التراب من ذوب اللجين إلى الذهب .
— وكان من أمنياتهم تحويل الفضة إلى ذهب ، فلم يستطيعوه —
وأنه بلغ الهرم — الأهرام — وهو ابن ستة عشر .
وأنه على الرغم من طول عمره وكبر سنه ، لم يعل الشيب مفرقه
ولم يلحقه هرم .

وأنه يشنف سمع الأرض بالقرط . ويحلى جيد الروض

بالزهر — وأنه راقص مبتهج يعيش من حسنه في عجب وطرب .
ومغن يشدو بلا صخب . والنسيم يداعبه من خلال الروض
بالقضب . وأن شاطئه دف تدق عليه أمواجه الشادية . وأنه راوية
يروى حديثاً مسلسلاً .

وأنه ذو فهم ولب وإرادة . وأنه مطيع كيس يأتي وقت
الحاجة إليه ، ويمضى عند الاستغناء عنه .

وأن ماءه سكرى المذاق يروق لإخوان الصفاء مكرراً .
وأن أكدار مائه مستحلاة . وأن حبه الطافي معلول بالراح .
وأن تياره كالشفة اللعساء الحلوة كالشهد . وأن ماءه يؤثر وأن
في مائه صنلاً مذاًبا في قلب الصخر فيخف ويلطف . وأن طينه
مسك . وأن لونه بين مورد ومندل . وأن في مائه صنلاً مذاًبا .
وأن ماءه خمر حل شربها . . وأن حصاه وجنادله تفخر على
النجوم والشهب .

وأنه ضمخ الأرض بمائه المصنل لما رأى بها شقيقه ،
تكريماً له . وأنه جواد أغر محجل ، وأن أصابعه وأذرعه
أياد كريمة . وأن وفاءه تنشره رايات القلوع ، وتعلنه الأصابع .
وأن أمواجه صوارم تقتل المحل . وأن الصبا جعلت
سطحه فصار كأنه سراويل من نسج داود تصلح للهيبة .
وأنه مرآة مصقولة ، فحكي السماء ، أو حكته السماء بأنجمها وأبراجها .

وأنه ملك وافي لينظر في أمر رعيته ، ليكشف عنها الضر .
٣ — أوصاف ما يتصل به من الأشياء والمناظر :

أن زوارقه وسفنه عرائس وجوار كنس . وأنها غادات
ومراسيها شنوف أو مراسيل . وأن سفنه نوحية الصنع والإحكام .
وأنها حذاء كهلال الأمن — لا الشك — وأنها تسير بالمرتاضين
في غير ملل ولا إعياء . وأنها شامات على شفة تياره . وأن كل
جارية عليه خود طائفة تلقاك محلولة الإزار . .

وأن أمواجه تتراقص ، وجواريه تدور على رجل .

وأن أسما كه فضة مما جمد من ذوب مائه .

وأن الروضة غانية شغلت قلبه بمحاسنها .

وأن الملاح بجانبه تبدو جميلة كأئنها البساتين ، للعيون فيها
مناظر . فقدودها أغصان بان . وعيونها أزهار نرجس ،
وخدودها ورود عطرة .

وبعد ، فهذه صباية من كأس ، وشعاع من شمس . فلعلها
تروى الغلة وتضيء السبيل :

دكتور

محمود رزق سليم

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها :

- ١ — الثقافة العربية أسبق من
ثقافة اليونان والعبريين } الأستاذ عباس محمود العقاد
- ٢ — الاشتراكية والشيوعية ... للأستاذ طي ادم
- ٣ — الظاهريبيرس في القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد بولس
- ٤ — قصة التطور للدكتور أنور عبد العليم
- ٥ — طب وسحر للدكتور بول غليونجي
- ٦ — فجر القصة للأستاذ يحيى حتى
- ٧ — الشرق الفنان للدكتور زكي نجيب محمود
- ٨ — رمضان للأستاذ حسن عبد الوهاب
- ٩ — أعلام الصحابة للأستاذ محمد خالد
- ١٠ — الشرق والإسلام الأستاذ عبد الرحمن صدقي
- ١١ — المريح } للدكتور جمال الدين الفندى
والدكتور محمود خيرى
- ١٢ — فن الشعر للدكتور محمد مندور
- ١٣ — الاقتصاد السياسى الأستاذ احمد عبد الحالى
- ١٤ — الصحافة المصرية للدكتور عبد اللطيف حمزة
- ١٥ — التخطيط القومى للدكتور ابراهيم حلمى عبد الرحمن
- ١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية للدكتور ثروت عكاشة
- ١٧ — اشتراكية بلدنا للأستاذ عبد المنعم الصاوى

- ١٨ — طريق القد للاستاذ حسن عباس زكي
- ١٩ — التشريع الإسلامى وأثره }
في الفقه العربى }
للدكتور محمد يوسف موسى
- ٢٠ — العبقريّة في الفن للدكتور مصطفى سويّف
- ٢١ — قصّة الأرض في إقليم مصر للاستاذ محمد صبيح
- ٢٢ — قصّة الذرة للدكتور إسماعيل بسيوني مزراح
- ٢٣ — صلاح الدين الأيوبي بين }
شعراء عصره وكتابه }
للدكتور أحمد أحمد بدوي
- ٢٤ — الحب الإلهي في التصوف الإسلامى }
للدكتور محمد مصطفى حلمي }
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب ... للدكتور إمام إبراهيم أحمد
- ٢٦ — صراع البترول في العالم العربى }
للدكتور أحمد سويلم العمري }
٢٧ — القومية العربية ... للدكتور أحمد فؤاد الأهواني
- ٢٨ — القانون والحياة للدكتور عبد الفتاح عبد الباقي
- ٢٩ — قضية كينيا للدكتور عبد العزيز كامل
- ٣٠ — الثورة العراقية للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
- ٣١ — فنون التصوير المعاصر ... للاستاذ محمد صدق الجباخجي
- ٣٢ — الرسول في بيته للاستاذ عبد الوهاب حمودة
- ٣٣ — اعلام الصحابة « المجاهدون » }
للاستاذ محمد خالد }
٣٤ — الفنون الشعبية للاستاذ رشدي صالح
- ٣٥ — إختائون للدكتور عبد المنعم أبو بكر
- ٣٦ — الذرة في خدمة الزراعة للدكتور محمود يوسف الشواربي
- ٣٧ — الفضاء الكوني للدكتور جمال الدين الفندي
- ٣٨ — طاغور شاعر الحب والسلام }
للدكتور شكرى محمد عياد }
٣٩ — قضية الجلاء عن مصر للدكتور عبد العزيز رفاعي
- ٤٠ — الخضراوات وقيمتها الغذائية والطبية }
للدكتور عز الدين فراج }

٤١	— العدالة الاجتماعية	للمستشار عبد الرحمن نصير
٤٢	— السبيل والمجتمع	للاستاذ محمد حلمي سليمان
٤٣	— العرب والحضارة الأوربية	للاستاذ محمد مفيد الشوباشي
٤٤	— الأسرة في المجتمع المصري القديم	للدكتور عبد العزيز صالح
٤٥	— صراع على أرض الميعاد	للاستاذ محمد عطا
٤٦	— رواد الوعي الإنساني	للدكتور عثمان أمين
٤٧	— من الذرة إلى الطاقة	للدكتور جمال نوح
٤٨	— أضواء على قاع البحر	للدكتور أنور عبد العليم
٤٩	— الأزياء الشعبية	للاستاذ سعد الحاددم
٥٠	— حركات التسلسل ضد القومية العربية	للدكتور إبراهيم أحمد المدوي
٥١	— الفلك والحياة	للدكتور عبد الحميد مباحة والدكتور عدلى سلامة
٥٢	— نظرات في أدهننا المعاصر	للدكتور زكي المحاسنى
٥٣	— النيل الحالد	للدكتور محمد محمود الصياد
٥٤	— قصة التفسير	للاستاذ أحمد الشرباصى
٥٥	— القرآن وعلم النفس	للاستاذ عبد الوهاب حمودة
٥٦	— جامع السلطان حسن وما حوله	للاستاذ حسن عبد الوهاب
٥٧	— الأسرة في المجتمع العربى بين الشريعة الإسلامية والقانون	للاستاذ محمد عبد الفتاح الشهاوى
٥٨	— بلاد النوبة	للدكتور عبد المنعم أبو بكر
٥٩	— غزو الفضاء	للدكتور محمد جمال الدين القندى
٦٠	— الشعر الشعبى العربى	للدكتور حسين نصار
٦١	— التصوير الإسلامى ومدارسه	للدكتور جمال محمد محرز
٦٢	— المسكرويات والحياة	للدكتور عبد المحسن صالح
٦٣	— عالم الأفلاك	للدكتور إمام إبراهيم أحمد
٦٤	— انتصار مصر فى رشيد	للدكتور عبد العزيز رفاعى

- ٦٥ — الثورة الاشتراكية
« قضايا ومناقشات » } للأستاذ أحمد بهاء الدين
- ٦٦ — الميثاق الوطني قضايا ومناقشات للأستاذ لطفى الخولى
- ٦٧ — عالم الطير في مصر للأستاذ أحمد محمد عبد الحالى
- ٦٨ — قصة كوكب للدكتور محمد يوسف موسى
- ٦٩ — الفلسفة الإسلامية للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
- ٧٠ — القاهرة القديمة وأحيائها للدكتورة سعاد ماهر
- ٧١ — الحكم والأمثال والنصائح } عند المصريين القدماء
للأستاذ محرم كمال
- ٧٢ — قرطبة في التاريخ الإسلامى } للأستاذ محمد محمد صبح
والدكتور جودة هلال
- ٧٣ — الوطن في الأدب العربى للأستاذ إبراهيم الاييارى
- ٧٤ — فلسفة الجمال للدكتورة أميرة حلمى مطر
- ٧٥ — البحر الأحمر والاستعمار للدكتور جلال يحيى
- ٧٦ — دورات الحياة للدكتور عبد المحسن صالح
- ٧٧ — الإسلام والمسلمون } في القارة الأمريكية
للدكتور محمد يوسف الشواربى
- ٧٨ — الصحافة والمجتمع للدكتور عبد اللطيف حمزة
- ٧٩ — الوراثة للدكتور عبد الحافظ حلمى
- ٨٠ — الفن الإسلامى في العصر الأيوبي للدكتور محمد عبد العزيز
- ٨١ — ساعات حرجة في حياة الرسول للأستاذ عبد الوهاب جودة
- ٨٢ — صور من الحياة للدكتور مصطفى عبد العزيز
- ٨٣ — حياء فلسفى للدكتور يحيى هوبدى
- ٨٤ — سلوك الحيوان للدكتور أحمد حماد الحسينى
- ٨٥ — أيام في الإسلام للأستاذ أحمد الشرباصى
- ٨٦ — تعمير الصحارى للدكتور عز الدين فراج

- ٨٧ — سكان الكواكب للدكتور إمام إبراهيم احمد
- ٨٨ — العرب والتتار للدكتور إبراهيم احمد المدوي
- ٨٩ — قصة المعادن المينة للدكتور أنور عبد الوحد
- ٩٠ — أضواء على المجتمع العربي للدكتور صلاح الدين عبدالوهاب
- ٩١ — قصر الحمراء للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
- ٩٢ — الصراع الأدبي بين العرب والمعم للدكتور محمد نبيه حجاب
- ٩٣ — حرب الانسان ضد الجوع }
وسوء التغذية للدكتور محمد عبدالله العربي
- ٩٤ — ثروتنا المدنية للدكتور محمد فهم
- ٩٥ — تصويرنا الشعبي خلال المصور للأستاذ سعد الحاددم
- ٩٦ — منشأتنا المائية عبر التاريخ للأستاذ عبدالرحمن عبد التواب
- ٩٧ — الشمس والحياة للدكتور محمود خيرى على
- ٩٨ — الفنون والقومية العربية للأستاذ محمد صدق الجباخنجي
- ٩٩ — أقلام نائرة للأستاذ حسن الشيخ
- ١٠٠ — قصة الحياة ولشأنا على الأرض للدكتور أنور عبد العليم
- ١٠١ — أضواء على السير الشعبية للأستاذ فاروق خورشيد
- ١٠٢ — طبائع النحل للدكتور محمد رشاد الطوبى
- ١٠٣ — التقود العربية «ماضيا وحاضرا» للدكتور عبد الرحمن فهمى
- ١٠٤ — جوائز الأدب العالمية }
«مثل من جائزة نوبل» للأستاذ عباس محمود العقاد
- ١٠٥ — الغذاء فيه الداء وفيه الدواء للأستاذ حسن عبد السلام
- ١٠٦ — القصة العربية القديمة للأستاذ محمد مفيد الشوباشي
- ١٠٧ — التقنية النافعة للدكتور محمد فتحي عبدالوهاب
- ١٠٨ — الأحجار الكريمة فى الفن والتاريخ للدكتور عبد الرحمن زكى
- ١٠٩ — الغلاف الهوائى للدكتور محمد جمال الدين القندى
- ١١٠ — الأدب والحياة فى المجتمع }
المصرى المعاصر للدكتور ماهر حسن فهمى

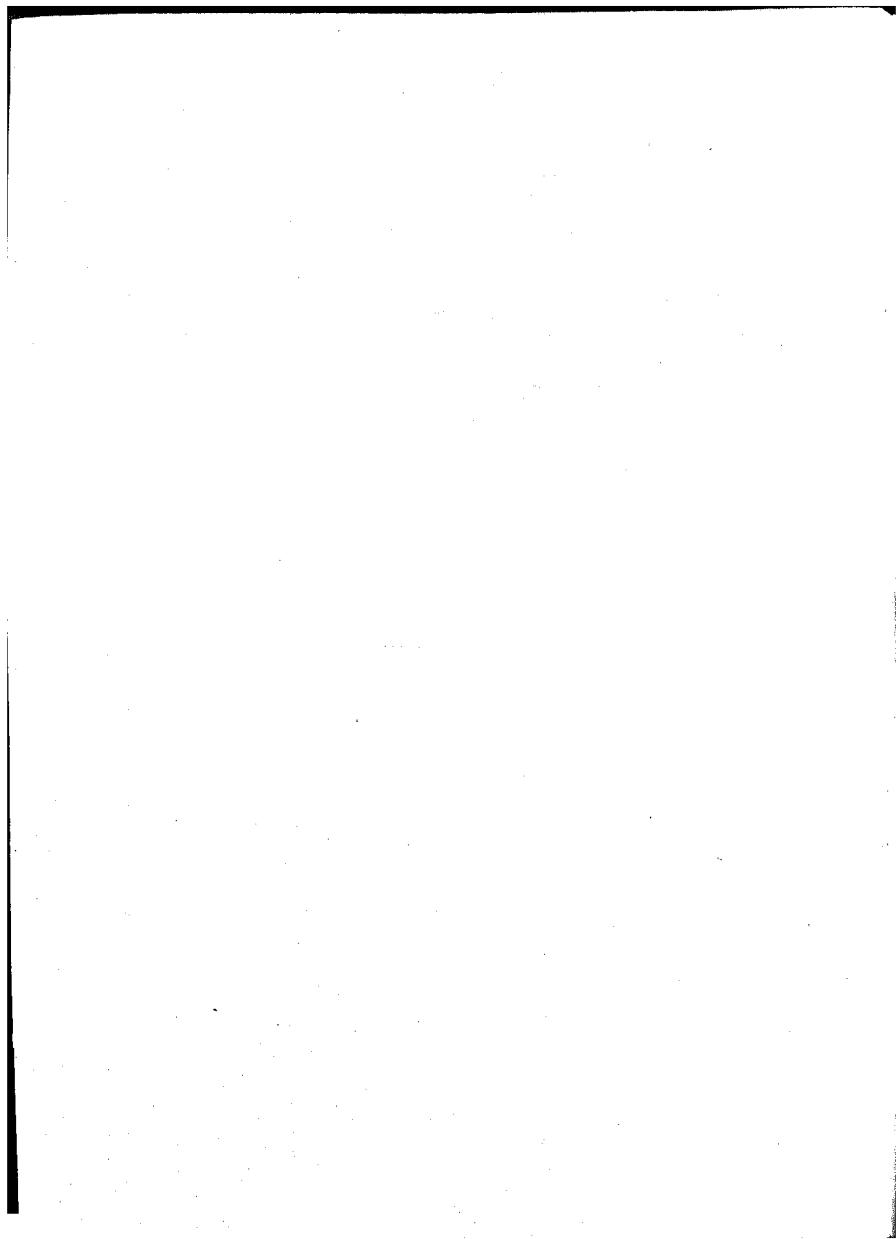
- ١١١- ألوان من الفن الشعبي ... للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف
- ١١٢- الفطريات والحياة للدكتور عبد المحسن صالح
- ١١٣- السد العالي « التنبيه »
الاقتصادية « } للدكتور يوسف ابوالحجاج
- ١١٤- الشعر بين الجود والتطور ... للأستاذ موسى الوكيل
- ١١٥- التفرقة العنصرية للدكتور احمد سويلم العمرى
- ١١٦- صراع مع الميكروب ... للدكتور محمد رشاد الطوبى
- ١١٧- الاصلاح الزراعى والميثاق ... للأستاذ محمد عبد المجيد مرعى
- ١١٨- أضواء جديدة على الحروب الصليبية للدكتور سعيد عبد الفتاح ماشور
- ١١٩- الأمم المتحدة وممارسة نظامها للدكتور سليمان محمود سليمان
- ١٢٠- أسرار مخلوقات المضيئة ... للدكتور عبد المحسن صالح
- ١٢١- التاريخ والسير للدكتور حسين فوزى
- ١٢٢- تطور المجتمع الدولى للدكتور يحيى الجبل
- ١٢٣- الاستعمار والتحرير فى العالم العربى للدكتور جمال حمدان
- ١٢٤- الآثار المصرية فى الأدب العربى للدكتور أحمد احمد بدوى
- ١٢٥- الاسلام والطب للأستاذ محمد عبد الحميد البوشى
- ١٢٦- الحلى فى التاريخ والفن ... للدكتور عبد الرحمن زكى
- ١٢٧- نافذة على الكون للدكتور امام ابراهيم احمد
- ١٢٨- الفلاح فى الأدب العربى ... للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
- ١٢٩- ثروتنا المائية للدكتور أنور عبد العليم
- ١٣٠- التفكير عند الإنسان ... للدكتور أحمد فائق
- ١٣١- رحلات الحيوان والطيور ... للدكتور مريد بنى حنا
- ١٣٢- النيل فى عصر المماليك ... للدكتور محمود رزق سليم

المن قرشان

مطابع دار القلم

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

مكتبة الاسكندرية



المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق استراكية الثقافة
- تيسر لكل قارئ أن يقيم في بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة ومتخصصين وبقرشين لكل كتاب
- تصدر مرتين كل شهر في أوله وفي منتصفه

الكتاب القادم

الفلسفة في الميثاق

الدكتور يحيى هوبرى

١٥ مايو ١٩٦٥